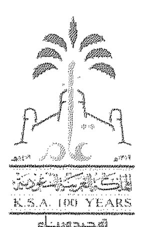
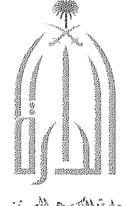
مكتبة الدارة العربية





الرحلة اليابانية إلى الجزيرة العربية



تأليف
ايجيرو ناكانو

ترجمة
سارة تاكاهاشي

صدر بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)









الرّحلة اليابانيّة إلى الجزيرة العربيّة

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

ناكانو، إيجيرو

الرحلة اليابانية إلى الجزيرة العربية ١٣٥٨هـ/١٩٣٩/إيجيرو ناكانو؛ ترجمة سارة تاكاهاشي .-ط٢.-الرياض.

١٩٢ ص ؛ ١٧×٢٤ سم.

ردمك: ٦-٢٣-٦٩٣-٩٩٦٠

١-السعودية- وصف الرحلات ٢- السعودية - تاريخ - الملك عبدالعزيز

أ- تاكاهاشي، سارة (مترجم) ب- العنوان.

ديوي ٩١٥,٢١٠٤٠٥ ١٩/١٣٥٨

رقم الإيداع:١٩/١٣٥٨

ردمك:٦-٢٣-٦٩٣-٩٩٦٠

اهداءات ٢٠٠٠

المملكة العربية السعودية





الرّحلة اليابانيّة إلى الجزيرة العربيّة

١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م

تأليف
ايجيرو ناكانو

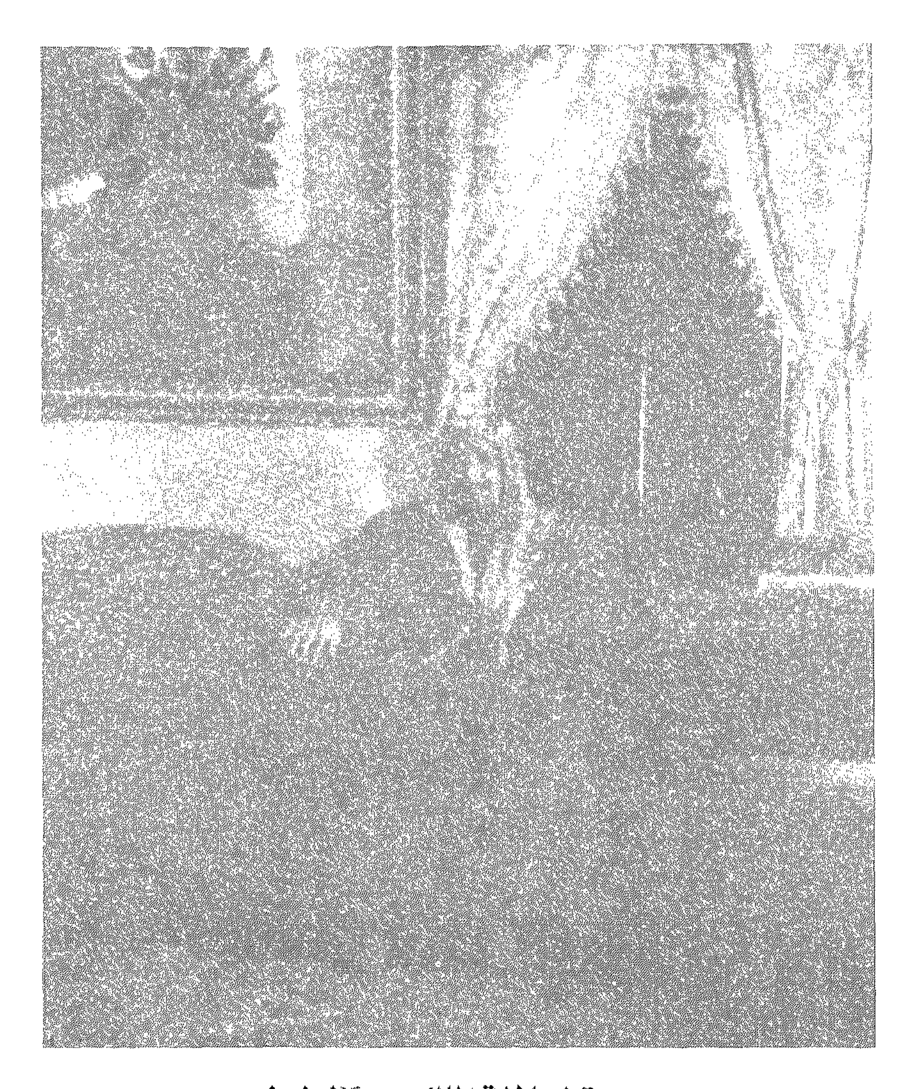


ترجمة
سارة تاكاهاشي

الطبعة الثانية

صدر بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية
(١٤١٩هـ - ١٩٩٩م)

بسم الله الرحمن الرحيم



صورة لجلالة الملك عبدالعزيز

التقطها إيجيرو ناكانو في قصر المربع بالرياض إبريل ١٩٣٩م/ ١٣٥٨هـ



تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله ، أما بعد :

فإن الإسلام أكبر نعمة أنعمها الله على الأمة. واستحضار هذه الحقيقة في كل عمل مخلص هو قمة الوعي بها، ومن ثم الدفاع عن مقوماتها . ولقد أدرك الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود - رحمه الله - عظمة هذه النعمة الإلهية، وعمل على تمثلها في نفسه ، فجعل الإسلام نبراساً له في كل أعماله، وحقق أهدافه السامية المتمثلة في التمسك بالعقيدة وتطبيق الشريعة الإسلامية والدفاع عنها ونشر الأمن، وتأسيس مجتمع مُوحَّد يسوده الرخاء والاستقرار .

ولقد كان استرداد الملك عبدالعزيز الرياض في الخامس من شهر شوال عام ١٣١٩هـ/١٩٠٢م هو اللبنة الأولى في تأسيس المملكة العربية السعودية، في حين تعود جذور هذا التأسيس من مائتين واثنين وستين عاماً، عندما تم اللقاء التاريخي بين الإمام محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبدالوهاب-رحمهما الله-عام ١١٥٧هـ/١٧٤٤م، فقامت بذلك الدولة السعودية الأولى على أساس الالتزام بمبادئ العقيدة الإسلامية، ثم جاءت الدولة السعودية الثانية التي سارت على الأسس والمبادئ ذاتها.

وعندما بدأ الملك عبدالعزيز في مشروع البناء الحضاري لدولة قوية الأركان، كان يضع نصب عينيه السير على منهج آبائه، فأسس دولة حديثة قوية، استطاعت أن تنشر الأمن في أرجائها المترامية الأطراف، وأن تحفظ حقوق الرعية، بفضل التمسك بكتاب الله - عز وجل - وبسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم -. وامتد عطاؤها إلى معظم أرجاء العالمين العربي والإسلامي، وكان لها أثر بارز في السياسة الدولية بوجه عام ، بسبب مواقفها العادلة والثابتة، وسعيها إلى السلام العالمي المبني على تحقيق العدل بين شعوب العالم .

وجاءت عهود بنيه من بعده : سعود وفيصل وخالد - رحمهم الله -، وخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز - يحفظه الله - امتداداً لذلك المنهج القويم.

وفي الخامس من شهر شوال عام ١٤١٩هـ / ٢٣ يناير ١٩٩٩م يشهد التاريخ مرور مائة عام على دخول الملك عبدالعزيز - رحمه الله - الرياض، وانطلاق تأسيس المملكة العربية السعودية، عبر جهود متواصلة من الكفاح والبناء، نقلت هذا الوطن وأبناءه من حال إلى حال. وصنعت بتوفيق - الله تعالى - وحدة حقيقية على أساس الإسلام، ملأت القلوب إيماناً وولاءً، وجسدت معاني التلاحم التاريخي بين الشعب وقيادته في مسيرة تاريخية .

إن استحضار أحداث ذلك اليوم في نفوس أبناء المملكة عونٌ على شكر الله على نعمه، وتذكير بأن هذه البلاد - التي قامت فيها الدعوة والدولة معاً - لا تزال وفية لعهد آجيال التأسيس والتوحيد، مستمدة منهجها في الحياة من كتاب الله وسنة نبيه

ومن أجل رصد الجهود المباركة التي قام بها المؤسس - رحمه الله- وأبناؤه من بعده ؛ عرفاناً بفضلهم ووفاء لحقهم : وإيضاحاً لمنهجهم القويم فقد قامت دارة الملك عبدالعزيز بإعداد العديد من الدراسات والإصدارات التي تتناول بعض تلك الجهود في منجزات علمية موثقة لتدلل بذلك على ما أسبغه الله - عز وجل - على هذه البلاد وأهلها، من تقدم علمي ، ومن نهضة زاهرة . وهذا الكتاب ما هو إلا جزء من سلسلة حح مجموعة المكتبة المئوية حح التي تقوم دارة الملك عبدالعزيز بإصدارها بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، وهي سلسلة علمية تهدف إلى خدمة تاريخ هذه البلاد ومصادره المتعددة .

وفي الختام أسأل الله القدير آن يديم علينا نعمه ، وأن يوزعنا شكرها ، والحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سلمان بن عبدالعزيز

رئيس مجلس إدارة دارة الملك عبدالعزيز

هذا الكتاب

ركز معظم الباحثين الذين تناولوا أدب الرحلات المتعلق بالجزيرة العربية على مؤلفات الرحالة الأوربيين، وذلك لانتشارها الواسع من حيث النشر والترجمة،

بينما ظلت مؤلفات أخرى لعدد من الرحالة من خارج القارة الأوربية - وإن كانت قليلة مقارنة بالرحلات الأوربية - دون اهتمام ورعاية من جانب الباحثين، فالرحلات الأخرى مثل تلك التي دوِّنت باللغة العربية وغيرها من اللغات الأخرى غير الأوربية لا تزال في حـ جة ماسة إلى الدراسة والبحث والنشر، من أجل استكمال الصورة التي ترسمها تلك الرحلات عن المنطقة بدلاً من الاعتماد على نمط واحد من الرحلات.

وتأتي أهمية هذه الرحلات اليابانية من كونها تتناول فترة تاريخية مهمة، وتسجل وقائع زيارة البعثة اليابانية الرسمية إلى المملكة العربية السعودية، ومقابلة جلالة الملك عبدالعزيز - يرحمه الله - في عام ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م.

ويبدو أن من أهداف الرحلة إطلاع الملك عبدالعزيز على وجهة النظر اليابانية بشأن العلاقات المشتركة السياسية والاقتصادية، وعلى الرغم من أن طبيعة هذه الرحلة سياسية بحتة إلا أن مؤلفها كان صاحب تجربة في البلاد العربية، ومطَّلعاً على الثقافة العربية، مما جعله يدون يوميات هذه الرحلة بأسلوب أدبي رائع.

والأهمية الأخرى لهذه الرحلة تكمن في كونها تقدم وجهة نظر أخرى تختلف عن وجهات النظر السائدة - خصوصًا الأوربية - عن المنطقة، مما يسهم في إثراء المصادر التاريخية من حيث تنوعها وتعددها، والإضافة الأخرى لهذه الرحلة، تتمثل في وجود عدد كبير من الصور الفوتوغرافية التي التقطها المؤلف أثناء الرحلة على الرغم من عدم وضوحها في هذه الطبعة، ويعود السبب في ذلك إلى إنتاجها من نسخة الكتاب الأصلية المطبوعة باللغة اليابانية، لعدم

توافر الأصول الفوتوغرافية للصور. ولأهمية هذه الرحلة ونفاد طبعتها الأولى فقد تم إعادة طبعها ضمن منشورات الدارة بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة مع تضمين هذه الطبعة ملحوظات صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز وتعليقات علامة الجزيرة الشيخ حمد الجاسر على الطبعة الأولى.

والله الموفق ...

الدارة

مُقدّمة المترجمة

أضع بين يدي القارئ العربي - أول مرة - هذه الترجمة العربية لكتاب «كايسو نوارابيا كيكو» «يوميات رحلة في الجزيرة العربية» لمؤلفه إيجيرو ناكانو (Eigiro Nakano) الذي كتبه باللغة اليابانية بعد عودته من المملكة العربية السعودية عام ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م، ونشر أولاً في حلقات بدءًا من رمضان ١٣٥٨هـ/ نوفمبر١٩٣٩م، وحتى محرم ١٣٦٠هـ/ فبراير ١٩٤١م في مجلة كايكوسيكاي (Kaikyo Sekai) أي (مجلة العالم الإسلامي)، ثم صدر في كتاب في شعبان ١٣٦٠هـ/ ٢٢سبتمبر ١٩٤١م في طوكيو باليابان.

وكانت حكومة المملكة العربية السعودية قد قدمت دعوة إلى المسؤولين في الحكومة اليابانية لزيارة الرياض، ونقل الدعوة الشيخ حافظ وهبة سفير جلالة الملك عبدالعزيز - يرحمه الله - في بريطانيا، تقديرا لما قدمته الحكومة اليابانية من مساعدة في إنشاء مسجد طوكيو عام ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م.

وتلبية لهذه الدعوة أرسلت الحكومة اليابانية إلى الرياض الوزير الياباني المفوض في سفارة اليابان بالقاهرة، على رأس وفد ضم مؤلف الكتاب «إيجيرو ناكانو»، وتعد هذه أول زيارة رسمية يقوم بها مسؤولون في الخارجية اليابانية إلى المملكة العربية السعودية.

ونظرا لأهمية هذه الرحلة، ولما يتمتع به كاتبها من ثقافة إسلامية عربية، جعلت من رحلته هذه وثيقة تاريخية مهمة، رأيت من المفيد ترجمتها إلى اللغة العربية، توثيقًا للعلاقات السعودية اليابانية من جهة، ودفعا للباحثين إلى المزيد من تقصي الحقائق عن تاريخ العلاقات العربية اليابانية من جهة أخرى.

تخرّج الكاتب في جامعة أوساكا للغات الأجنبية، قسم اللغة الألمانية، والتحق بالعمل في وزارة الخارجية سنة ١٣٥٢هـ/ ١٩٢٢م، ثم سافر إلى القاهرة، وأقام فيها سبع سنوات، درس- وفق



ماقال - في الأزهر وفي جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة) ويقال: إنه عمل أستاذًا بجامعة أوساكا للغات الأجنبية.

وفي أثناء ترجمتي للكتاب لاحظت أن علاقة الكاتب بالإسلام وثيقة، وهي أعمق من أن تكون علاقة ثقافية فقط، وإن لم يعلن عن هذا في كتابه صراحة، وسوف يؤيد القارئ وجهة نظري، حين يطالع ماكتبه عن مشاعره عند سماع الأذان، ورغبته القوية في القيام بأداء الصلاة، فهو يقول «ورحت أصلي من داخل فؤادي» وأيضًا حين تحدث عن الآيات القرآنية التي وردت على خاطره.. وتفسيره الدقيق لمعناها .. فكل هذا لايصدر إلا عن رجل معجب بالإسلام، وهذه نقطة مهمة تحتاج إلى بحث واستقصاء.

وفيما يتعلق بالترجمة التزمت الدقة في النقل، مع الحفاظ على روح النص الأصلي، وطريقة البيان في اللغة اليابانية، وإذا كانت إقامتي في الرياض تسع سنوات قد ساعدتني على فهم ما ذكره المؤلف في رحلته، فإنّ لغته اليابانية القديمة التي مضى عليها أكثر من نصف قرن، أتعبتني كثيرًا، وجعلتني ألجأ إلى المعاجم اليابانية المختلفة، ولاسيما القديمة والمتخصصة.

هذا بالإضافة إلى الاستفادة من بعض المصادر الإنجليزية والعربية التي ورد ذكر بعض منها في الحواشي الواردة في الترجمة العربية.

وفي الختام أشكر الله عز وجل الذي وفقني إلى ترجمة هذا الكتاب القيم، كما أشكر سعادة الدكتور/ فهد بن عبدالله السماري، أمين عام دارة الملك عبدالعزيز، الذي شجّع على ترجمة الكتاب، ووفر لي بعض المصادر المهمة التي ساعدتني أثناء الترجمة، وقام بمراجعته ومتابعة إنجازه .. كما أشكر الدكتور سمير عبدالحميد إبراهيم، الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الذي قام بتحرير النص العربي المترجم، وشرح بعض ما استعصى عليّ فهمه من نقاط وردت في النص الأصلي، وعبارات عربية كتبها المؤلف بطريقة غير واضحة بحروف (الكاتاكانا) اليابانية، وأشكر أيضًا الدكتور حمد بن ناصر الدخيل الذي قام

بمراجعة الترجمة من الناحية اللغوية، والشكر موصول إلى الأستاذ/ أمين توكوماس أحد مديري جمعية مسلمي اليابان في طوكيو على مساعدته إياي في الحصول على نسخة من الكتاب، بعد أن نفذت نسخه، وأصبحت في حكم النادر.

والله الموفق،،،

الرياض ١٤١٦هـ

سارة تاكاهاشي

مقدمة الكاتب

في مايو ١٩٣٨م (السنة الثالثة عشرة من التقويم الياباني شوّا) زار الشيخ حافظ وهبة (سفير المملكة العربية السعودية في بريطانيا) اليابان لحضور حفل افتتاح مسجد طوكيو الذي بني في منطقة (يويوغي)[١]. وحث الشيخ حافظ وهبة وزارة الخارجية اليابانية على إرسال وفد ياباني إلى المملكة العربية السعودية، لدعم الروابط بين البلدين، فلبّتْ وزارة الخارجية اليابانية الدعوة، وأرسلت وفدًا يتكون من السيد «ماسويوكي يوكوياما» الوزير المفوض في سفارة اليابان في مصر، والسيد تومويوشي ميتسوتشي، وكان مهندسًا بوزارة شؤون الصناعة والتجارة الدولية، وكاتب هذه السطور إيجيرو ناكانو، وكنت أعمل آنذاك في السفارة اليابانية في القاهرة.

وصلنا إلى مدينة جدة في الرابع من صفر عام ١٣٥٨هـ (السادس والعشرين من مارس سنة ١٩٣٩م)، وفي الواحد والثلاثين من مارس بلغنا مدينة الرياض، حيث قطعنا الطريق وسط الجزيرة العربية بالسيارة، وبقينا في الرياض عشرة أيام، ويتحدث هذا الكتاب عن مشاهداتنا في الأيام العشرة التي أمضيناها في الرياض، والأيام التي قضيناها في رحلتنا في قلب الجزيرة العربية.

في تلك الأيام لم يكن هناك سوى القليل جدّاً من الأوربيين الذين زاروا مدينة الرياض، ومعظمهم من المغامرين البريطانيين، أو العسكريين. أو من الدبلوماسيين، وكانت هذه أول مرة يزور فيها ياباني هذه المنطقة، وقد عوملنا معاملة المسؤولين المهمين والضيوف الرسميين، وتمتعنا بكرم الضيافة العربي، فوضعت الحكومة السعودية تحت تصرفنا خمس سيارات، وثلاثين مرافقًا، ظلّوا معنا طوال رحلتنا، فلم تواجهنا صعوبة تذكر، على الرغم من أنها تعد الزيارة الأولى لتلك البلاد، فقمنا برحلتنا في أمن وأمان، وكانت تجربة رائعة لنا جميعاً.

(١) يدل هذا على عمق اهتمام المملكة وقيادتها بأمور المسلمين وبيوت الله في أنحاء الأرض، منذ ذلك الزمن، رغم ضآلة الموارد والإمكانات في تلك الفترة وبداية عهد الملك عبدالعزيز - يرحمه الله-.

مقدمة الكاتب

في تلك الأيام كانت أوربا تتحول إلى ميدان معركة كبير. وكانت بلدان جنوبي غرب آسيا على وشك المعاناة أيضاً. ومن هنا وجب علينا أن نأخذ الحيطة والحذر. فالمنطقة مثلها مثل بقية بلدان آسيا. وكان علينا أن نفهم هذه المنطقة جيدًا. وأن ندرك - بصفة خاصة - الروح الإسلامية التي يتمتع بها أهلها.

وأتمنى أن يسهم هذا الكتاب في دعم روابط الصداقة بين بلدان جنوب غربي آسيا واليابان.

وأخيرًا أشكر الحكومة السعودية، وجميع من رافقونا في رحلتنا على مديد المساعدة الكريمة لنا خلال رحلتنا، وأدعو الله أن يرعى جلالة الملك عبدالعزيز وولي عهده ويحفظهما.

يوليو ١٩٤١م

إيجيرو ناكانو

طوكيو - اليابان



اليوم الأول

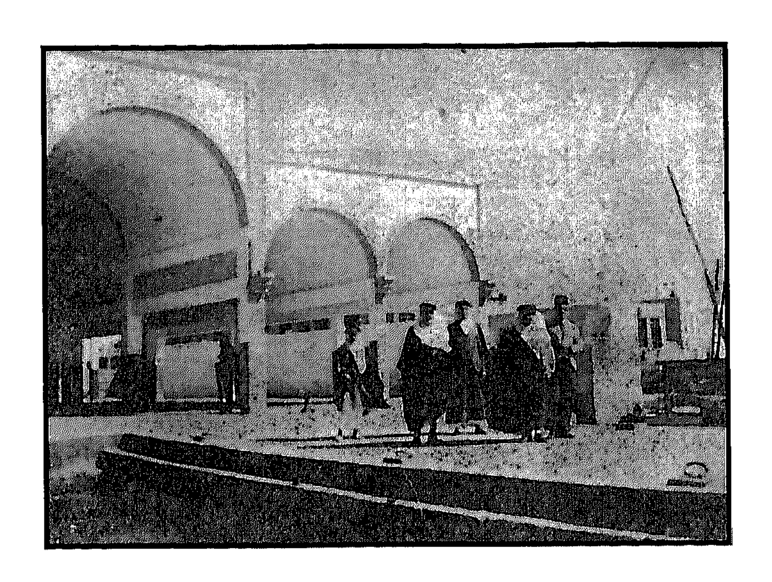
عَبر الجزيرة العربيّة

جدة وقبر حواء

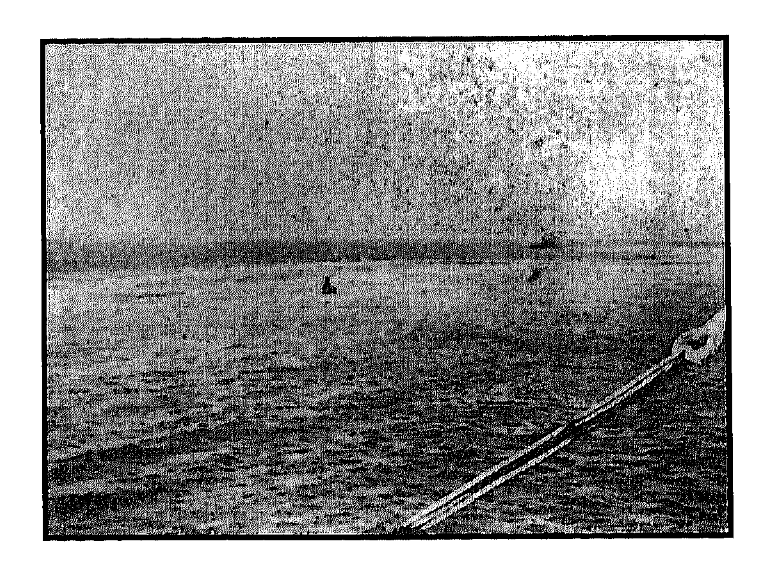
وصلنا نحن الأربعة: السيد يوكوياما، والسيد ميتسوبتشي، ومساعد السيد يوكوياما، وكاتب هذه السطور (ناكانو) إلى مدينة جدة، صباح يوم ٢٦ مارس ١٩٣٩م، كانت الحرارة ٣٢.٣ درجة مئوية، وعند نقطة تقع على بعد ميل من الشاطئ كان علينا أن ننتقل إلى «يخت» صغير تاركين السفينة التي أقلّتنا إلى الميناء، نظراً لوجود شعب مرجانية كثيرة تكونت في البحر الأحمر منذ القدم، ودفعني الفضول إلى أن أسأل الرجل الذي كان يقود «اليخت» الصغير عن سبب ترك هذه الشعب المرجانية في البحر هكذا، سألته: لماذا لا تنظفون المنطقة، وتقيمون ميناء طيّبًا هنا يخلو من المخاطر التي قد تتعرض لها السفن؟ فأجاب قائلاً: «إنها الرغبة في الحفاظ على البلاد من خطر السفن المعادية التي لا يمكنها أن تمر من فوق هذه الشعب المرجانية؛ لأن العمق لا يتجاوز المتر وربع المتر تقريبًا..».

واقتربنا من مبنى الجمرك، وكان « اليخت » الذي نركبه يديره رجل عربي يرتدي «العقال» و «الغترة»، وكان هناك بعض الأمتعة القليلة ومساعد واحد، ونادرًا ما كان الرجلان يتبادلان الحديث معا، ولم نكن نشعر بأية ضوضاء بل هدوء، وهدوء، وتعجبت: أهذه هي الشخصية العربية البدوية!!





الصورة رقم (٢) قائمقام جدة يستقبلنا في مدينة جدة



الصورة رقم (٢) ميناء جدة

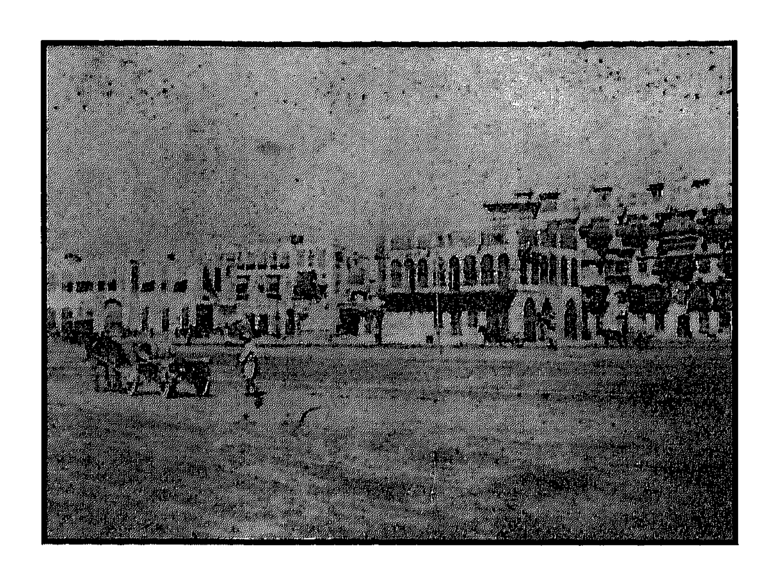
استقبلنا قائمقام مدينة جدة، ورئيس الشرطة، ومدير شركة مصر (للملاحة)، واستعرضنا حرس الشرف ورحب بنا الجنود، ولأنني عشت في مصر حوالي سبع سنوات فقد كان انطباعي الأول عن مدينة جدة طيّبًا. كانت المدينة هادئة بعد انتهاء موسم الحج. وفيها شاهدنا مكتب الجمارك، ومقر فرع وزارة المالية، ووزارة الخارجية، وتقع كلها وسط المدينة. كما شاهدنا مكتب البريد والسوق. ولفتت انتباهنا البيوت العالية التي شُيِّدَتْ من الحجارة والخشب، واصطفت على جنبات الطريق الذي كنّا نمر به.

رأينا في مكتب الجمارك ما يقرب من خمسين أو ستين موظفًا وعاملاً، يحملون الملابس والبضائع والحاجات اليومية وما شابه ذلك، إلى منطقة نجد، وكان الفندق الذي أقمنا فيه - ويسمى فندق مصر - رائعًا وممتازًا.

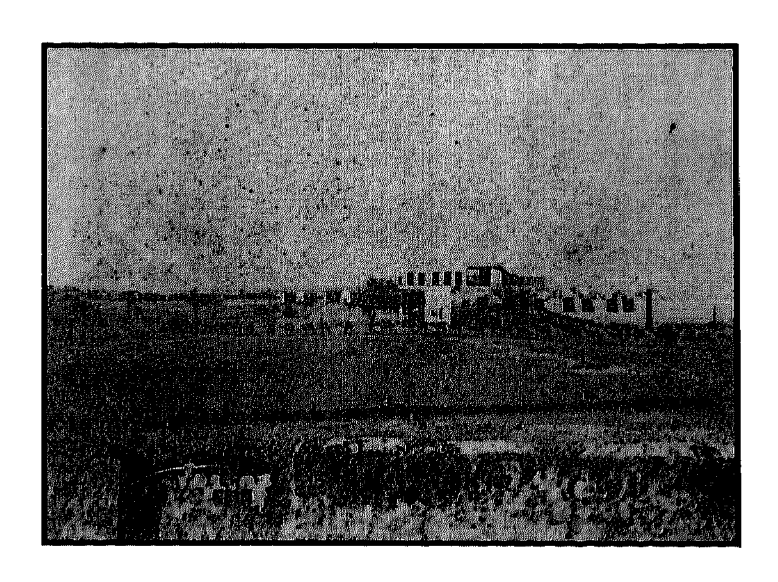
شعرنا بارتفاع نسبة الرطوبة في الجو، وسمعنا أن أمراضًا عديدةً مثل الملاريا والدوسنتاريا، والكوليرا قد تفشت في موسم الحج، وقد خضعنا قبل ذلك لفحص دقيق جدًا، لإثبات خلونا من هذه الأمراض، وذلك في الحجر الصحي في جبل الطور في شبه جزيرة سيناء.

وعدد السكان في جدة ٢٥ ألف نسمة، بمن فيها من أجانب، ويقال: إن عدد الأجانب فيها ستون أوربيًا وأمريكيًا، وخمس أو ست من النساء، بينما يكثر وجود الأجانب المسلمين من الشام وتركيا وتتاريا. وجدة هي المكان الوحيد في هذه المنطقة الذي يُسْمَح فيه بوجود الأجانب.

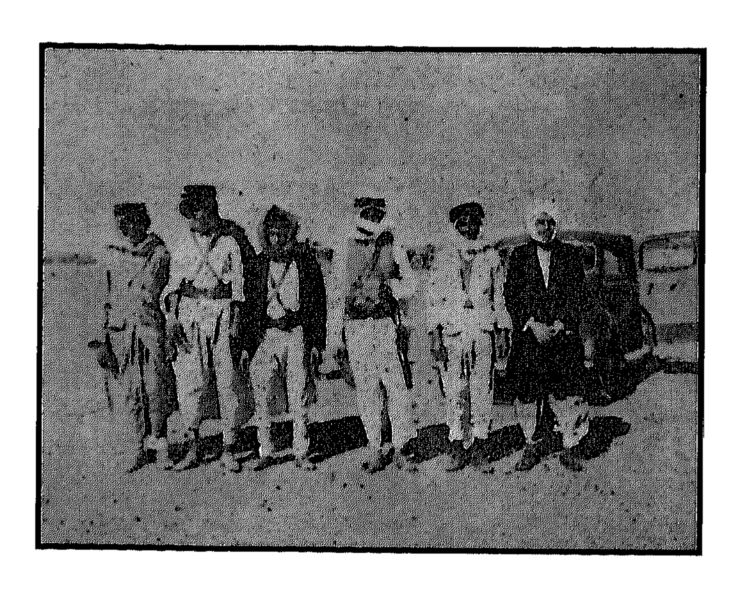
وقيل لنا: إن قبر «حواء» يقع هنا بالقرب من منزل فيلبي، لكن لم نعثر له على أثر يذكر، وشعرنا أن المكان قد تعرض لتقلبات الزمان، وتغير فيه كل شيء وسط هذه المنطقة الصحراوية، وكان من الصعب الاعتقاد بأن هذه المنطقة كانت من أكثر مناطق العالم تقدما وازدحاما بالسكان في العصر الجليدي الرابع.



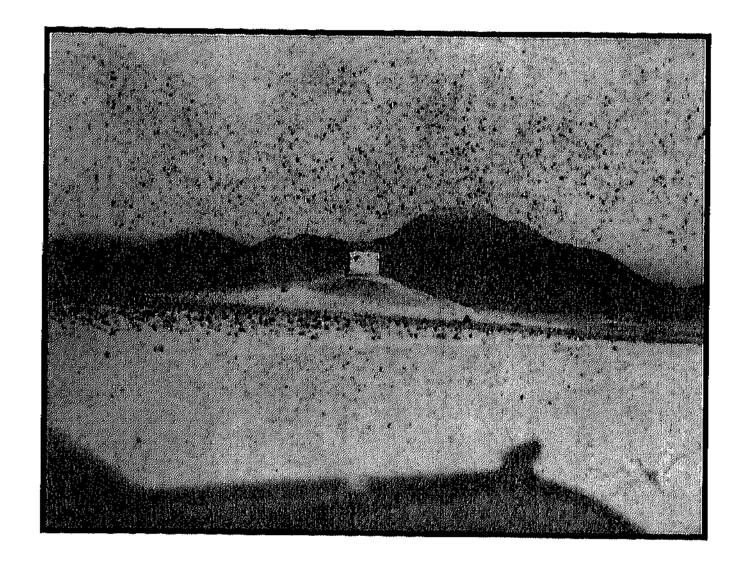
الصورة رقم (٤) مدينة جدة



الصورة رقم (٥) قافلة بالقرب من قلعة في حرة



الصورة رقم (٦) مرافقونا العرب الذين سهروا على خدمتنا



الصورة رقم (٧) منطقة بحرة

اليوم السابع والعشرون من مارس

الساعة الثالثة عصرًا

انطلقنا متجهين إلى الرياض:وبرعاية كريمة من جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود وضع تحت تصرفنا سيارتي ركوب، سيارة لنا، وأخرى للمرشد ورئيس الحرس، كما زودّنا أيضًا بسيارتين: سيارة نقل واحدة لحمل الخيام والطعام، وأخرى بها ثلاثون من الرجال، وأهدانا الشيخ عبدالله السليمان وزير المالية بعض الملابس العربية: أعطانا غترة ومشلحًا وعقالاً، وقمنا بالتقاط صورة جماعية بعد أن ارتديناها. لقد أخبرنا بأن نرتدي هذه الملابس العربية، دون إبداء السبب، لكنني أعتقد أنهم لم يرغبوا في أن يشاهد الأهالي الملك يستقبل ضيوفًا يرتدون ملابس على الطراز الغربي. غير أنني كنت في غاية السعادة، وأنا أرتدي الغترة والمشلح والعقال، وأصبحنا نبدو أقرب للعرب منّا إلى الأوروبيين. كانت أشجار النخيل تنتشر في كل مكان على جانب الطريق، لكننا لم نشاهد زهورًا على الإطلاق!

الساعة الخامسة مساءً

وصلنا إلى استراحة صغيرة في «بحرة»، كان هناك حوالي ١٥ أو ١٦ بيتًا، ومخفر صغير ومبنى عام، توقفنا لأخذ قسط من الراحة، واحتسينا الشاي بالنعناع في أكواب من الزجاج، ثم شربنا القهوة أيضًا، وكانت هناك «الشيشة»، وعلى حائط الاستراحة كتبت عبارات مثل «لا إله إلا الله» بخط الثلث الجميل، وأعتقد أن كاتبها خطاط محترف.

لم نشعر بوجود التأثير الوهابي الذي سمعنا عنه هنا [٢]. والمسافة من جدة إلى بحرة حوالي

(٢) يبدو أن الرحالة سمعوا بالدعاية المضللة التي تعتقد أن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب دعوة جديدة في الإسلام، لها تعاليمها الخاصة القائمة على الشدة والغلو، والحقيقة أن دعوة الشيخ رحمه الله دعوة سلفية، مهمتها إحياء مذهب أهل السنة والجماعة، وتخليص المجتمع الإسلامي من البدع والخرافات، مستمدة مبادئها من القرآن والسنة، وما عبر عنه الرحالة هنا يكشف عدم صحة ما أثير من دعاية ضد الدعوة السلفية.

٣٠ كيلاً، وقد شاهدنا العلم السعودي على أسطح المنازل. ورغم أننا رأيناه في جدة إلا أننا حين شاهدناه في هذا المكان من الصحراء شعرنا بأننا داخل البلاد العربية، رغم أننا لم نشعر بالعالم من حولنا، ولم نشعر بملامح حضارية هنا. إلا من خلال الأكواب المصنوعة في اليابان التي شربنا فيها الشاي والقهوة، ومن خلال أسلاك الكهرباء الممتدة من جدة إلى هذا المكان.

وفي بحرة زودنا السيارات بالوقود. إذ ينبغي لنا أن ننطلق إلى منطقة الوادي، والوصول إلى هناك يتطلب السير إلى الناحية الغربية، غير أن هذا كان طريق الحج الذي لايمكن أن يمضي فيه إلا المسلم، ومن هنا كان علينا أن نأخذ الطريق من الناحية الشمالية، وهو ليس بطريق بمعنى الكلمة، بل هو ممر ضيق، وعلى الرغم من أننا ضيوف جلالة الملك فإنه لم يكن مسموحًا لنا بالسير في هذا الطريق الذي يسلكه الحجاج إلى مكة، وقد سمعت أن اثنين من عائلة آثلون الملكية البريطانية [٣] حضرا إلى هذا المكان قبل عامين، ولم يسمح لهما بعبور طريق الحج المؤدي إلى مكة، ولو حتى بطريقة سرية، مما جعلهما يسيران على الممر الضيق نفسه الذي سلكناه نحن أيضا؛لأن حكم الشريعة الإسلامية واضح، وقوانينها صارمة لا تفرق بين الناس، مهما كانت منزلتهم.

---

(٣) اللورد اثلون والاميرة التي قاما بزيارة رسمية للمملكة العربية السعودية في ربيع عام ١٩٣٨م.



الصورة رقم (٨) الطريق إلى جُعْرَانة



الصورة رقم (٩) مقهى بَحْرة

غرز في الرمال

وصلنا إلى طريق ضيق تحفّه أشجار السنط البرية المزهرة (الطلح)، ولم نكد نمضي على هذا الطريق حتى اختلفت الطرق التي كانت السيارات تتبعها في سيرها. لم تعد السيارات تمضي معًا، وبينها المسافة المعهودة، كان ذلك بسبب الرمال والأحجار الصغيرة، كانت هناك هضاب ومرتفعات بعضها مغطى بالجرانيت، وبعضها ذو أشكال عجيبة، بينما يميل لونها للون البني القاتم. استمرت سيارتنا تمضي بسرعة عشرين كيلاً في الساعة.

عمّ الظلام، ولم تكن للبوصلة أية فائدة هنا، لكننا كنا نتجه ناحية الشرق، وفي حلكة الليل الشديدة كانت سيارتنا فقط هي المزودة بالأضواء الأمامية، وهي الأضواء الوحيدة التي يمكن مشاهدتها من حولنا، بينما كان الغبار يرتفع من حولنا أيضاً، وعلى الرغم من أننا أغلقنا كل النوافذ، فإنّ الرمال كانت تنفذ إلينا داخل السيارة، وانخفضت درجة الحرارة - ربما تدنت إلى ١٢ أو ١٣ درجة مئوية - لكن الجو على كل حال كان معتدلاً، يميل إلى البرودة المريحة المنشطة.

وفجأة اهتزت سيارتنا، وغاصت عجلاتها في الرمال، كان سائقنا ذا خبرة، وتبدو خبرته أكثر في مثل هذه الحوادث التي تقع عادة في الطريق الصحراوي (كان سائقنا لسيارة الملك)، حاول عدة مرات أن يفلت من الرمال، لكن الأمر أصبح أكثر سوءًا.

انتظرنا السيارات تأتي من ورائنا، ولكنها لم تصل كما توقعنا، فأوقفنا محرك سيارتنا وقنعنا بالانتظار، وساد الصمت الذي لم يكن يقطعه سوى صوت بعض الحشرات، وبعد فترة قدمت إحدى السيارات، كان فيها المرشد ورئيس الحرس وبعض المساعدين، فترجلوا من سيارتهم، وحاولوا مساعدة سيارتنا، وإخراجها من الرمال، وأخبرونا بأن الناقلتين قد تعرضتا للمصير نفسه. خرجنا جميعًا من السيارة، ثم رفعناها من الرمال، وأخذ رئيس الحرس يشكرنا، ويمتدح ماقمنا به من عمل، ويثني على تعاوننا هذا!!!

وطبقا لما قاله لنا رئيس الحرس، فقد كان يحرس الملك ويلازمه طوال الوقت. أما الآن فهو الحارس الخاص لعبدالله السليمان وزير المالية. كان الرجل مهذبًا مؤدبًا معنا إلى أقصى درجة. وكان وزير المالية قد عيّنه لحراستنا بصفة خاصة، ونشاهده دائمًا يحمل بندقية طويلة على كتفه ويتمنطق بخنجرٍ، ويبدو لنا رجلاً شجاعًا لا يهاب أحدًا.

بعد عشرين دقيقة تمكنت عربتنا من الخروج من الرمال، وتابعنا المسير من جديد، وحاولنا أن نسير بسياراتنا في طرق متقاربة حتى لا يتعرض أحد منا للضياع أو للعطل، كان الطريق معوجا يرتفع وينخفض، وأصابنا جميعًا التعب والإرهاق.

أخبرنا سائقنا أنه سبق له قيادة السيارة بين جدة والرياض مرات عديدة، لكنه كان دائما يسلك الطريق المسمى «السكة السلطانية» والطريق الذي سلكناه نحن يسمى «السكة الذهبية»، وكانت القوافل قديمًا تستخدم هذا الطريق، ويبدو طريق «السكة السلطانية» أفضل كثيرًا، وأكثر أمنًا وأمانًا.

وتساءل السائق: لماذا كان علينا أن نسلك الطريق الأصعب!؟ لم يكن يعرف أن غير المسلمين لا يمكنهم المضي في الطريق الآخر، أي طريق «السكة السلطانية» الذي يؤدي إلى «مكة»، وذكر السائق أنه كثيرًا ما كان يسوق سيارة الملك عبدالعزيز بن سعود، وكانت إذا «غرزت» السيارة بهم في الرمال، هب الملك لمساعدته في رفع عجلات السيارة من الرمال، وقال: إن الناس اعتادوا على مناداة الملك بالحاج عبدالعزيز، دون ذكر لقبه الملكي.[٤]

واستمر الحديث على هذا المنوال بينما كانت السيارة تغوص في الرمال مرة بعد مرة، ولم يكن المرافقون والحراس يبدون تذمرًا من هذا الأمر أو يتململون. حقّاً إنها طبيعة الصحراء الصعبة، التي لايمكن للإنسان أن يتدخل فيها أو يغيرها، ولهذا فلا ينبغي أن يشكو الإنسان قسوة هذه الطبيعة، وهؤلاء العرب الذين معنا عرب أقحاح أصلاء، عاشوا هنا منذ مئات

---

(٤) لم يسر أحد من قبل إلى شيوع لقب «الحاج»، وإنما كانت الالقاب المعروفة «الامام» و« السلطان» و « الملك».

السنين بل آلافها، أجسادهم مغطاة بالرمال والعرق، وجلودهم صارت كلون أشجار الصنوبر.

هكذا سنحت لنا الفرصة لنشاهد الأجساد العربية الأصيلة، وكنا كلما سرنا ثلاثة أو أربعة أمتار نزلنا لنحرك العجلات التي غاصت في الرمال، وتعبنا جميعًا، وأخذ منا التعب مأخذه، ولكننا كنا أقوياء؛ ولذلك تحملنا المشقة نفسها التي تحملها رفاقنا العرب، إلا أن برودة الهواء في الليل جعلتنا نصاب بالسعال والزكام.

حفل الشاي العربي

بعد مضي فترة من الزمن، وعلى بعد حوالي ستين كيلاً تقريبًا من مدينة جدة -

كان عداد السرعة بالسيارة معطلاً - وصلنا إلى قرية صغيرة يقال لها (الجعّرانة)، فاستقبلنا أميرها وأشعل النار، وأعد لنا الشاي، وحين تحلقنا حول النار كان هناك حوالي خمسة عشر أو ستة عشر رجلاً عربيّاً من كبار القرية يجلسون معنا، وقد رحبوا بنا ترحيبا عربيّاً حاراً، وحيّانا الأمير بلهجة حجازية، فقام عبدالسلام - رئيس الحرس يشرح ماقاله الأمير بلغة عربية فصحى، عرفنا أنه أمير القرية، وأن الملك عينه مباشرة أميرًا عليها.

وحول النار دارت فناجين القهوة العربية والشاي المعد على الطريقة العربية، كانت هذه أول مرة ننال فيها هذا الشرف، ونجلس مع مثل هؤلاء الناس، منذ وصولنا إلى المملكة العربية السعودية.

كانت القهوة مُرّة جدّاً، ولكن كانت أفواهنا مليئة بالرمال والأتربة، ولذلك بدا هذا الطعم المر للقهوة العربية لذيذًا جدًا، لقد شربت القهوة العربية في سفارة المملكة العربية السعودية في القاهرة، وفي بغداد، ولكن لم تكن مثل هذه القهوة التي أشربها الآن. لقد شعرت أن هذه هي القهوة العربية الحقيقية بلا منازع.

كان الذين يقدمون القهوة يدورون حولنا مرة بعد الأخرى، وعرفنا أننا لو حركنا الفنجان في يدنا مرتين أو ثلاثًا فهذا يعني أننا لا نرغب في شرب المزيد من القهوة. بعد ذلك تحدثنا مع الأمير وبقية كبار القرية مدة نصف ساعة أو أكثر قليلاً، في بداية الحديث قال الأمير: إنه مسرور بلقاء وفد ياباني هنا لأول مرة! وجرى الحديث في موضوعات كثيرة، فذكر الأمير أنه خلال حكم الحسين بن علي لهذه المنطقة كان العديد من البدو قُطّاع الطرق يهاجمون الناس المتوجهين للحج، ويغيرون على قوافل التجارة، وكانت المنطقة في خطر نتيجة تهديد هؤلاء البدو الذين لم تكن عساكر الحسين بقادرة على مواجهتهم والقضاء عليهم، ولكن بعد قدوم الملك عبدالعزيز آل سعود استتب الأمن، وتمكن من السيطرة على المنطقة جيّدًا. وهكذا أصبح الطريق أكثر أمنًا، والناس الذين يأتون للحج لم يعودوا يخافون شيئًا.

وأثنى الجالسون على الملك عبدالعزيز آل سعود، وأثنوا أيضًا على نظام الإخوان الذي أسسه الملك عبدالعزيز، وذكروا لنا مرة بعد مرة مقدار مايكنونه له من حب وتقدير. بجوار النار توجد بئر، وهي منحة من الملك لأهل القرية حفرها لهم، والملك نفسه حين يذهب إلى مكة ينزل في هذا المكان ويشرب من ماء البئر، هذه عادة يتبعها الملك دائما.

وذكر أحدهم أن هذا المكان له أهمية تاريخية، لأن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم حين هاجر إلى المدينة، وأراد أن يؤدي فريضة الحج أول مرة ضرب خيامه في هذا المكان، وأصبح يطلق عليه «ميقات الإحرام». (٥)

كل هذا كان يشرحه لنا عبدالسلام الذي تولى الترجمة أو الشرح بالعربية الفصحى، وهو مصري تخرج في جامعة الأزهر، ثم ارتحل إلى مكة واستقر بها، وهو يدير فندق مكة، ويثق فيه الملك كثيرًا، وهو رجل ذكي جداً ومهذب، ويعمل أيضًا مراسلاً صحفيّاً للصحف المصرية،

---

(٥) لم يحج النبي ﷺ سوى حجة واحدة هي حجة الوداع، وأحرم من ذي الحليفة ميقات أهل المدينه، اما إحرامه من الجعرانة، فكان للعمرة التي أداها عليه الصلاة والسلام بعد منصرفه من غزوة حنين والطائف في السنة الثامنة للهجرة. انظر سيرة ابن هشام، القسم الثاني: ٥٠٠، والسيرة النبوية لابن كثير، مج٣، ص٦٩٢، مج٤، ص ٢١٢-٢١٣-٢٢٩.

وكان يعرف جيّدًا كيف يتعامل مع أمثالنا.[٦]

قبل العاشرة بدأنا المسير، وكنا قدّرنا الارتفاع عن سطح البحر، فكان ٣٠٠متر، كان الطريق وعرًا، وواجهنا مرة أخرى مشكلة الرمال، وتوقفنا ونزلنا من السيارة، واضطُرِرنا لرفع السيارة مرة بعد مرة، فشعرنا بالتعب، لكن مرافقينا العرب لم يشعروا بماشعرنا به، ولا أزال أتذكر كلمات (تغريز)، (غراز)، (غرزت) وهي ترن في أذني حتى الآن.

وبعد حوالي ثلاثين كيلاً التقينا بقافلة صغيرة تتكون من عشرين أو ثلاثين جملاً تحمل البضائع والحاجات اليومية في أجولة من الجوت والصناديق الضخمة. وكان أحد الجمال يتقدم القافلة كأنه قائدها، وكأن الإنسان الجالس على ظهره ليس سوى زينة فقط، وتذكرت كلمات الرحالة «داوتي»[٧] عن الصحراء العربية:

«في الصحراء الإنسان تابع للجمل».

الساعة العاشرة والنصف

مرت سيارتنا بواحة بها بيوت قليلة، أخذنا الماء وتحركنا ثانية، وكُنّا على ارتفاع ٤٣٠مترًا عن سطح البحر، والهواء صار أكثر برودة.

---

(٦) هو عبدالسلام غالي قدم من مصر للتعليم في المملكة ضمن بعثة من المدرسين ثم استقر في مكة المكرمة وحاز على الجنسية السعودية، وتولى إدارة فندق أنشئ فيها بعد فندق مصر التابع لشركة مصر للملاحة البحرية، وكان معروفًا بلطف معشره، وسمو أدبه، وعلاقاته الطيبة مع كثير من العلماء والأدباء والمشاهير (حمد الجاسر).

(٧) هو تشارلز داوتي Charles M.Doughty (١٨٤٣م - ١٩٢٦م) درس في جامعة كمبردج الجيولوجيا وفقه اللغة والآثار، وارتحل إلى الشرق سنة ١٨٧٠م، ووصل إلى سورية سنة ١٨٧٤م، فدرس اللغة العربية في دمشق، ثم زار مصر وعبر سيناء إلى البتراء، ورافق إحدى قوافل الحج سنة ١٨٧٦م، فوصل إلى وسط الجزيرة العربية وإلى الحجر مدائن صالح وحائل وخيبر، ثم عاد إلى إنجلترا ١٨٧٨م، ويعد كتابه (أسفار في الصحراء العربية سنه ١٩٤٩م من أهم ما كتب، طبع في كمبردج عام ١٨٨٨م)، وأعيد طبع الكتاب أكثر من مرة، وهو يقع في مجلدين ضخمين.

الساعة الحادية عشرة

شعرنا فجأة بالبرودة الشديدة. ومررنا بجانب مجرى مائي يمضي بين الصخور، ووصلنا إلى قرية تسمى (الزيمة) يبلغ سكانها ٢٠٠٠ أو ٣٠٠٠ نسمة، وفي هذا المكان تستقر قبيلة كانت تسلب وتنهب وتقطع الطريق. ويذكر أن البريطاني (داوتي) وصل إلى هذه المنطقة واستراح عند «عين الزيمة»، ويقال: إنه تعرض لهجوم هؤلاء الناس، لأنهم اكتشفوا أنه نصراني، ولهذا تملكنا الخوف ونحن نمر بهذه المنطقة، ليس معنا نقود، وكنا نرتدي على رؤوسنا الزي العربي، وأشعر الآن مقدار ماقاساه «داوتي» في هذه المنطقة من متاعب، وقد استفاد «لورنس» الكثير من مذكرات «داوتي». [٨]

لم نتمكن من البقاء هنا مدة أطول، إذ كان علينا أن نصل إلى محطتنا التالية «السيل».

وفي منتصف الليل شعر سائقنا بالدوار فجأة؛لأن الطريق أمامه كان يعلو ثم يهبط، ويتلوى أمامه كالثعبان، ولهذا قام السيد يوكوياما بقيادة السيارة، كان الأمر في غاية الصعوبة، وكانت السيارة تمضي بسرعة ثلاثين كيلاً في الساعة، والارتفاع عن سطح البحر وصل إلى أكثر من خمسمائة متر. شعرنا جميعًا بالحاجة إلى النوم، لكن كان علينا أن نمضي كما لو أنّ الطريق يقودنا رغماً عنّا إلى الجحيم. ظلمة حالكة، وطرق وعرة ملتوية. وبعد فترة وجدنا الطريق الرئيس المؤدي إلى مكة، فأصبحنا على بعد ١٥٠ كيلاً من جدة.

أولمبيا العرب . بقايا عكاظ .. السيل

الساعة الواحدة صباحاً

وصلنا إلى السيل، وقد استغرق ذلك وقتًا طويلاً، فقد غادرنا جدة في الساعة الثالثة مساءً.

---

(٨) أشار لورنس إلى ذلك في مقدمته للرحلة. انظر Travels in Arabia Deserta, pp 16-28

شاهدنا ناراً، وحين قربنا منها وجدنا عددًا قليلاً من البيوت الصغيرة.

فنزلنا من السيارات، وشعرنا بالبرد الشديد، فقد كانت درجة الحرارة منخفضة جدّاً، وبدأ الرجال الثلاثون المرافقون لنا ينصبون الخيام، ويعدون الطعام، وبعد نصف ساعة!! كان الطعام معدّا. وجاء عبدالسلام وشرح لنا آن الخيمة الأولى ستكون من نصيب الوزير الياباني، والثانية لنا، وخيمة لتناول الطعام، وأخرى تستخدم دورة مياه.

في الخيمة المعدة لتناول الطعام وضعوا منضدة وكراسي وأطباقًا، وفرشوا على المنضدة مفرشا أبيض، لقد اهتموا فعلاً بنا اهتمامًا كبيرًا، وحرصت الحكومة السعودية على توفير الراحة لنا، فقد جهزت الخيام المعدة للنوم بالآسرَّة التي كانت من النوع البسيط، الذي يستخدم في المعسكرات، إلا آنها زودت بالألحفة والمفارش، وفرشوا آرض الخيمة بسجادة يبدو آنها مصنوعة في مصر، وكان اتساع الخيمة آكثر من خمسة آمتار مربعة، وهي منسوجة من القماش السميك، ومن العجيب آن نجد عليها شريطاً كتب عليه مصنوع في اليابان آوساكا Made in Japan, Osaka. كان من غير المتوقع آن نرى شيئا مصنوعا في اليابان هنا في هذه الصحراء، كنا جوعى جدّاً، وكان الطباخ السوداني قد أعد لنا حساء طماطم من العلب الجاهزة، كما آعد لنا خبزاً عربيّاً، ودجاجاً مشوياً،وكباباً، وآرزًا محمّرًا باللحم، ومهلبية، بالإضافة إلى البرتقال والتفاح، فكان الطعام بالنسبة لنا مليئاً بالسمن، لكن بعد هذه الرحلة الطويلة كان هذا الطعام من آلذ ماآكلته في حياتي. وفي آثناء تناولنا الطعام كان مرافقونا العرب يؤدون الصلاة جماعةً.



الصورة رقم (١٠) الكاتب والمهندس في الخيمة



الصورة رقم (١١) سرير الوزير الياباني المفوض

بعد تناول الطعام خرجنا من الخيمة، وأخذنا نشاهد المنظر من حولنا. كان الجو باردًا جدّاً، وكانت البوصلة تشير إلى ناحية الشمال بدرجة قدرها ٢١.٥ شمالاً. وكنا نشاهد نجوم الشمال واضحة، وقبل النوم تناولنا «أسبرين » للتخفيف مما لحق بنا من تعب وإرهاق، وأعطينا « شاكر» السائق بعض الأسبرين، لأنه مرض في الطريق وأصيب بالدوار .. وكذلك أعطينا عبدالسلام، ونام رئيس الحرس في خيمة الطعام، ونام المرافقون خارج الخيام، وقبل النوم مباشرة قمنا بجولة قصيرة حول الخيام، ثم دخلت الخيمة، وكتبت بعض المذكرات. ثم أويت إلى فراشي، ورحت في نومٍ عميق.



اليوم الثاني

المعَلّقات السَّبْع

الثامن والعشرون من مارس

في أول ليلة قضيناها في الجزيرة العربية نمنا نومًا عميقًا داخل الخيمة، لم أشاهد أية أحلام في منامي، استيقظت الساعة السادسة صباحًا، وكان الجو باردًا، إذ كنا على ارتفاع ١٥٥٠ مترًا فوق سطح البحر، لم تكن هناك رطوبة على الإطلاق خارج الخيمة، يمكن أن أرى قرية صغيرة هناك عبر الوادي. ذلك موضع سوق عكاظ [١] قبل الإسلام، الذي يقام كل عام، فيجتمع فيه العرب ينشدون الأشعار ويتفاخرون، بينما الفتيات العربيات يخطِرْن هنا وهناك، بعيونهن الواسعات وأجسادهن ذوات اللون القمحي الداكن.

وهكذا وجدت المعلقات، ووجد شعراء كبار من أمثال: امرئ القيس، وزهير بن أبي سلمى، والنابغة الذبياني، وعمرو بن كلثوم وغيرهم، كان شعرهم يركز على المرأة، والخمر، والصحراء، والجمل والفرس. لقد تعلمت هذا مرة في كلية الآداب بجامعة القاهرة، حين درست على يدي الأستاذ الدكتور طه حسين - ذلك الأديب الضرير المشهور - الأدب الجاهلي، والحياة في البادية، وحياة العربي في الجاهلية، وتأثرت كثيرًا بهذا الشعر الجاهلي الرائع، والآن أرى كل شيء أمام عيني، بقايا خلفية هذا الشعر الذي نظمه أولئك الشعراء، الذين قدموا من أواسط نجد، ومن بلاد طيء شمال نجد، ومن البحرين، إلى هذه المنطقة التي أشاهدها أمامي، كانت الرحلة خطرة بالنسبة لهم، لكن رغبتهم في أن تكون أشعارهم معلقة على جدار الكعبة كانت هي الدافع وراء هذه المعاناة، للوصول إلى هذا المكان، وكانت

---

(٩) سوق عكاظ يقع على مقربة من (الطائف) في الناحية الشمالية الشرقية منه، أما القول بأنه في (السيل الكبير) فهذا غير صحيح (حمد الجاسر)

العاطفة القوية هي أساس حياتهم البدوية في تلك الفترة، لقد تعجبت كثيرًا، ففي هذا الشعر يمكنهم أن يُعبِّروا عن أحاسيسهم بتعبيرات متنوعة ومتفرقة، مستخدمين كلمات ومفردات تحمل معاني مختلفة، وظلالاً متباينة، يقولون ذلك في حرية مطلقة، ومما يؤسف له أن أدباء أوربا ينتقدون هذه الأشعار، وأعتقد أن السبب هو عدم فهمهم لمعاني كلمات الشعر العربي.

وتجدر الإشارة إلى أهمية هذه المعلقات لمعرفة الإسلام والمسلمين في تخليص حياة العرب مما علق بها من شوائب وأخطاء، لأن هذه الفترة هي الفترة التي تمخض عنها الإسلام، أي الفترة السابقة للإسلام، لهذا فهي توفر معلومات مهمة عن فترة ما قبل الإسلام.

استخدم الوزير الياباني يوكوياما، والمهندس ميتسوتشي دورة مياه الخيمة التي كانت عبارة عن حفرة وسط الرمال فقط، وكنا شاكرين فضل مرافقينا لأنهم جعلوا دورة المياه مغطاة!!



الصورة رقم (١٢) أطفال في منطقة السيل

الساعة السابعة صباحًا

ارتفعت الشمس عالية، وارتفعت درجة الحرارة في زمن وجيز، وانشغل رفاقنا العرب بإعداد طعام الإفطار، وفي أثناء ذلك اقترب منا خمسة أو ستة أطفال من العرب، تتراوح أعمارهم مابين السابعة والثامنة، كانوا جميعًا يلبسون ملابس صنعت من جلود الأغنام وفروها، وبدا من مظهر شعورهم أنهم لم يحلقوا رؤوسهم أبدًا. أكبرهم فتاة في التاسعة أو العاشرة، بدت مغطاة تماماً، وهربت، كان الأطفال حذرين وخائفين منّا، ولكن بعد أن أعطيناهم بعض «البسكويت» اختفى الخوف من وجوههم؛فاقتربوا منا، وبدأوا يتحدثون معنا، فسألتهم عن إخوتهم وآبائهم، فأجابوا عن أسئلتي بلغة عربية فصحى! لم يتح لهم شيء من التعليم، فكانوا لايعرفون القراءة ولا الكتابة، وبدت بيوت القرية مبنية من الطين وصخور الجرانيت، وتقدر بحوالي مائة بيت، يعيش فيها ٣٠٠نسمة، هكذا قال عبدالسلام، ويقع هذا المكان على بعد ١٩٠ كيلاً من جدة، و٤٠ كيلاً من مكة. (١٠)



الصورة رقم (١٣) مقهى في منطقة السيل

(١٠) المسافة بين السيل ومكة تقارب ضعف هذه المسافة. (حمد الجاسر).



وفي المنطقة جبل اعتاد الناس أن يستريحوا عنده، أثناء ذهابهم للحج، قبل وصولهم إلى مكة، لاعتدال جوه ونظافته، وقد قدم إلى هنا مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني، وكان قائد الحركة في فلسطين، وقد بذل وساطة بين اليمن والمملكة العربية السعودية، ويقال: إن الملك عبدالعزيز آل سعود يحب هذه المنطقة كثيرًا.

الساعة السابعة والنصف

بدأنا في تناول طعام الإفطار المكون من: الشاي، والحليب، والبيض المقلي، وبعض الحلوى، والبرتقال، كان الحليب حليب الماعز، وكان البرتقال لذيذا جدًا، فأكلت منه كثيرًا، وبعد أن فرغنا من الطعام قوض مرافقونا العرب الخيام، وبعد عشر دقائق ركبوا الناقلة، وبدأنا نتحرك.

الساعة الثامنة وخمس وأربعون دقيقة

تركنا المكان، وبعد عشر دقائق وصلنا إلى وادٍ يقع بين جبلين، وبعد نصف ساعة مضينا في طريق ضيق جدًا، يسمح بمرور عربة واحدة فقط، وإذا سقط المطر، تحول هذا الممر إلى مجرى مائي، ولهذا كان على السائق أن يقود السيارة بعناية فائقة واحتياط شديد، وعلى كل حال فقد تناول بعض حبات من «الأسبرين» ليلة أمس، لذلك كان يشعر بالراحة، وسرنا بسرعة ٢٠ كيلاً في الساعة، وبعد مضي ساعة وصلنا إلى نقطة مفرق بين الحجاز ونجد، كان الارتفاع هنا ١١٠٠متر فوق سطح البحر، وهذه هي أعلى نقطة مرتفعة في هذه المنطقة.

اجتزنا المنطقة الجبلية، وبدأنا نمضي وسط منطقة منبسطة مليئة بأشجار الطلح وأشجار السلم، كان الطريق سهلاً، لكنه ملتف بالأشجار التي اعترضت طريقنا، مما اضطرنا إلى النزول من السيارات لإزالتها من أمامنا.

بئر عشيرة

الساعة العاشرة وعشر دقائق

وصلنا إلى مكان يدعى «عشيرة» فلم نشاهد شيئًا من البيوت أو الخيام، بل كل ما شاهدناه كان بئرًا وسط الرمال، ورأينا حولها أربعين جملاً وخروفًا، وخمسة عشر راعيًا يحملون قرب الماء المصنوعة من جلود الغنم وكان الجو معتدلاً؛ فدرجة الحرارة لا تتعدى ٣٠ درجة مئوية.

كان هؤلاء الرعاة منهمكين تمامًا في استخراج الماء من البئر، وسقي إبلهم وأغنامهم، وحمل الماء إلى حيث يذهبون بأنعامهم في عمق الصحراء، كانت البئر محاطة بالمياه المتساقطة، وبمخلفات الحيوانات التي انبعثت منها رائحة كريهة، وبجانب البئر شاهدت لوحة كتب عليها: « بسم الله الرحمن الرحيم، هذا البئر حفرها عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل فيصل ١٣٥٣هـ(١٩٣٤م) ملك المملكة العربية السعودية»

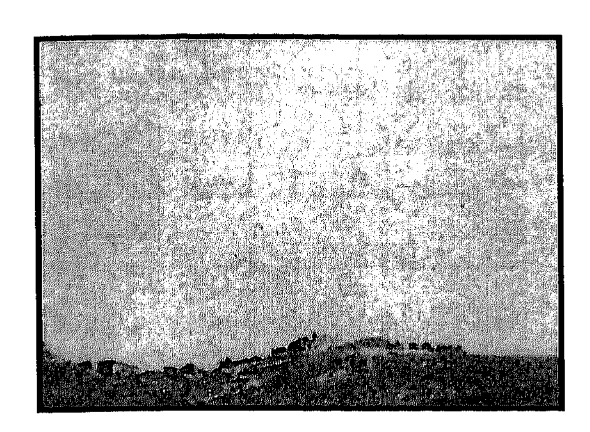
وأعتقد أن هذا كان تعاطفًا من جانب الملك مع البدو، ورغم أنه حفر بئرًا واحدة، فإنها مفيدة جدًا، ولها منفعة كبرى للبدو في هذه المنطقة، والبئر ليست عميقة، ونسبة ملوحة الماء فيها مرتفعة، ورغم أن اللوحة المكتوبة تشير إلى أن الملك حفر البئر فإن «داوتي» ذكر هذه البئر أيضا. [١١]

أخذنا نشاهد الأحجار في هذه المنطقة، وهي أحجار سوداء يطلقون عليها (حرة) أو (حرار) ويقال: إن الجزيرة العربية منذ قديم الأزمان - حين انفصلت عن كتلة أفريقيا - كانت درجة حرارة هذه الأحجار فيها قد وصلت إلى ١٥٠٠ درجة مئوية، لهذا ماتت جميع المخلوقات، وبقيت هذه الأحجار شاهدة على هذا الحدث.

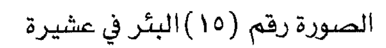
---

(١١) يحتمل ان البئر انطمرت، وغطتها الرمال، وحفرها الملك عبدالعزيز بعد ذلك. ويحتمل ايضا ان البئر التي ذكرها الرحالة « داوتي» غير هذه البئر.





الصورة رقم (١٤) حصن



الصورة رقم (١٥) البئر في عشيرة





الصورة رقم (١٦) الكاتب عند البئر في عشيرة

طريق معبد لم تصنعه يد البشر

الساعة الحادية عشرة

وصلنا إلى أرض منبسطة واسعة، سطحها مغطى بأحجار شديدة الصلابة، وبدا الطريق الذي نسير عليه مثل طريق قد تم رصفه وتعبيده في بلد من البلاد المتقدمة، وهنا سارت السيارة بسرعة تجاوزت مائة كيل في الساعة، فكانت هذه أول مرة نقود السيارة بهذه السرعة العالية.

سافرت مرة إلى الصحراء أثناء وجودي بمصر، شعرت هناك بعظمة الطبيعة، لكن شعوري هنا مختلف، فأنا أشهد بأن الطبيعة هنا قد جاوزت حدود الوصف، شعرت بالعظمة الإلهية، فلاشيء ولا أحد غيرنا هنا.

كان علينا أن نخفف السير أحيانا بسبب الطلح التي تعترض الطريق، لكننا كنا بعد دقائق نعود إلى السرعة التي مضينا عليها في الطريق المعبد، الذي لم تصنعه يد البشر.

قرأت مرة قصصًا عربية وحكايات، وكنت أفكر في «الجن» الذين ورد ذكرهم في (القرآن الكريم)، والآن أجد نفسي في مثل هذه الظروف، وفي مثل هذا الجو الذي يجعل أحد الجن يظهر أمامي بسهولة، لهذا أعتقد أن العرب القدامى الذين تحدثوا عن الجن لم يتحدثوا عنهم من فراغ، ولا من وحي خيال، بل تحدثوا عنهم من خلال معايشتهم لمثل هذه الطبيعة الصعبة التي تضمّني الآن، لقد أوجدوا الجن في حياتهم، ولابد أنهم شاهدوهم حقيقة، فلم تكن هناك سيارات، ولم تكن هناك مبان ولابيوت، لم يكن شيء سوى أشجار هنا وهناك، ولابد أنهم كانوا يشاهدون أشكالاً غريبة من الصخور، يحولها ضوء الشمس الشديد أمامهم إلى أشكال أقرب إلى الجن منها إلى أي شيء آخر.

ولقد وجدنا الآن مخلوقات صغيرة من حولنا .. لم نجد ناقة ولابعيراً ولا إنسانًا، بل وجدنا طيورًا لها ريش رمادي، ونسورًا بها خطوط بيضاء على أجنحتها، شاهدنا طيورًا خضراء جميلة، لكن أهم ما لفت نظري هو «الضب»، لونه بني يميل إلى الصفرة، كلون الرمال، رجلاه طويلتان أطول من رجلي الضب الذي عرفناه، والذيل قصير أقصر من جسده، يبحث في النهار عن الطعام فيخرج من جحره، وفي الليل يأوي إليه، وحركاته سريعة جدّاً، يقول العرب: إن ذيل الضب لذيذ جدّاً، ويجعل العمود الفقري للإنسان الذي يأكله قوياً وصلباً. وقوة العمود الفقري وصلابته يفخر بهما العرب كثيرًا؛ لأنهم إذا سافروا بالجمل، فإنهم في حاجة إلى أن يكون عمودهم الفقري قويّاً.

محطة خدمة السيارات (المويه)

كانت السيارة تمضي بسرعة ٦٠ كيلاً في الساعة، وقد توقفنا للراحة في الطريق، وتناولنا عصير البرتقال.

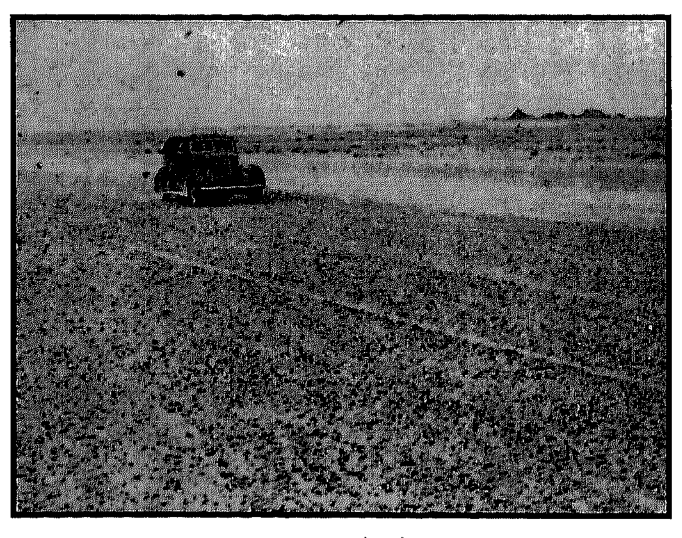
الساعة الواحدة ظهراً

نزلنا عند «المويه»، وهي عبارة عن محطة خدمة للسيارات، وبقايا قلعة مضى على بنائها نحو ١٤ أو ١٥سنة، وكان الملك عبدالعزيز يتوقف في هذا المكان للتزود بالوقود.

حين وصلنا إلى هذه المنطقة، وجدنا حوالي ستين شاحنة توقفت للتزود بالوقود، وكان الوقود قد وضع في حاوية ضخمة في ركن من أركان المحطة، ويعد هذا المكان محطة للذاهبين إلى مكة وجدة والمدينة، كما أنه محطة لسيارات البريد، وكذلك سيارات نقل البضائع.



الصورة رقم (١٧) صورة للضَّب



الصورة رقم (١٨) الطريق إلى الدفينة

تقرر أن نتناول الطعام في أطلال القلعة، وفي أيام الحج يقيم العسكر في هذا المكان، حيث بقايا سقف قائم على صخور ترفعه دون وجود حوائط، ولكنهم يقولون إنهم سيعيدون بناء هذه القلعة مستقبلاً. واخترنا غرفة تبدو مريحة، فرشنا أرضيتها بالسجادة، ووضعنا فوقها الأطباق، وبدأنا في تناول الطعام، كان الطعام مشابها لطعامنا أمس تمامًا.

ثم غفونا فترة قليلة، ولم يقلقني سوى رائحة الرمال والرطوبة العالية هنا، وفي الجزيرة العربية فإن أي مكان يوجد فيه قليل من الماء فذلك يعني وجود خضرة، وهذا يجعل من المكان استراحة للبدو، وسوقاً للقوافل. وقد عانينا كثيرًا من الذباب.

وقد تعودت على الذباب في القاهرة، ولكن لم أكن أتوقع أن أجد هذا الذباب وبهذا الشكل في مثل هذه المنطقة.

الساعة الخامسة عصراً

استأنفنا السير في اتجاه الشمال، وبعد فترة وجدنا أنفسنا نمضي في أرض مختلفة، لونها أبيض، وتراءت لنا صخور الجرانيت البيضاء من يمين ويسار، ومضينا بسرعة ٥٠كيلاً في الساعة، وأحيانا بسرعة ٧٠كيلاً في الساعة، كان المهندس ميتسوتشي ينزل أحيانًا من السيارة، لأنه يريد أن يفحص الرمال والصخور، ويجمع بعض قطع الأحجار، فهو مهتم بدراسة جيولوجيا المنطقة، وبقياس الارتفاع عن سطح البحر، وكذلك اتجاه البوصلة، كان يستخدم المكبر للرؤية الدقيقة. ويبدو مبهورًا جدّاً بما يرى تحت هذا المكبر (المنظار المكبر)، لم نر الآن أية مخلوقات، وكنا نمضي على وتيرة واحدة، ولم أكن أشعر أبدا بالملل. لا أدري لماذا؟

ربما لأنني أحب الصحراء، وأعشق هذه الطبيعة الخلابة، وأحاول أن أفهم الإسلام، هذا الدين الذي نبت وسط هذه البيئة.

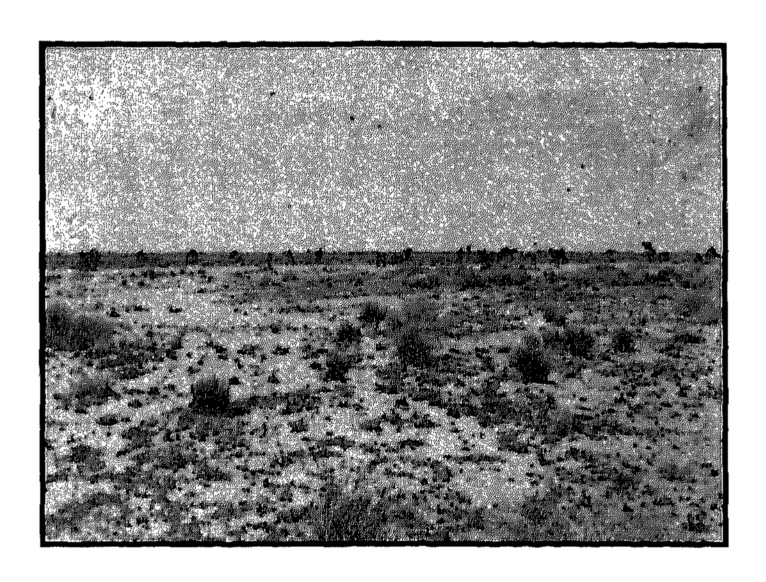
من خلال مظهر الطبيعة في هذا المكان يبدو أنه لا شيء يتغير من حولك، لكن يجب أن نعرف كيف تعيش المخلوقات البسيطة وسط هذه الظروف الصعبة، وكيف تكون قوة الطبيعة هنا. هكذا ولد الإسلام وسط هذه الظروف الصعبة، فنشأ قويّاً صلبًا، أعتقد هذا.

النار فوق الهضبة عند الدفينة

غربت الشمس وساد الظلام، وعند الساعة الثامنة وخمس عشرة دقيقة، شاهدنا نيرانًا وسط الظلام، حيث توجد «الدفينة» المكان الذي سنقيم فيه الليلة.

بدأت أشعر بالعزلة هنا أكثر مما كنت عليه أمس، حيث كنا بالسيل، لأن مكان أمس كان يسمح لنا بأن نشم رائحة (البحرالأحمر)، وكنا لانزال بجوار الحضر والمدنية، ولكن هنا لاشيء، لاشيء على الإطلاق.

فنحن في مكان بعيد جدّاً عن أي مكان يعيش فيه الناس. هدوء يسيطر على كل شيء، هدوء مخيف، هدوء يبعث على الجزع، النار التي شاهدناها أشعلها اثنان أو ثلاثة من البدو، ضربوا خيامهم هناك، اقتربنا منهم، وبدأ العرب المرافقون لنا يقيمون الخيام، ويجهزون الطعام، وتم كل ذلك في سرعة فائقة ومدهشة، في مدة نصف ساعة فقط كان كل شيء معدّاً تماماً، الطعام نفسه كطعام ليلة أمس، البرتقال الذي حملناه معنا ضمر بسبب حرارة الشمس، وفي أثناء تناولنا الطعام كان مرافقونا العرب يؤدون الصلاة. وبينما كنا نسمع صوتهم، وهم يصلون كنا نشعر بالوحدة، وبالخوف، ونشعر بالتعاطف، وبنورانية وشفافية في داخلنا، كنا نشعر بالتناغم والانسحاب، كما لو كانت صلاتهم هذه شيئًا رائعًا يدخل إلى القلب فيثير فيه مشاعر متنوعة. تجولنا قليلاً حول الخيام، وفي الساعة الحادية عشرة تقريباً أوينا إلى الخيام للنوم، كانت درجة الحرارة ١٢.٤درجة مئوية، بينما كان الارتفاع ٨٦٠ متراً فوق سطح البحر.



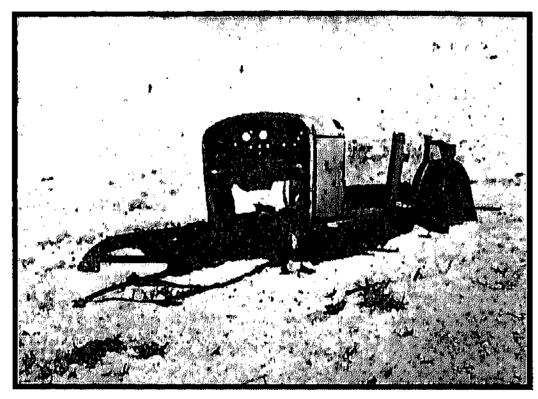
الصورة رقم (١٩) حقل في الدفينة

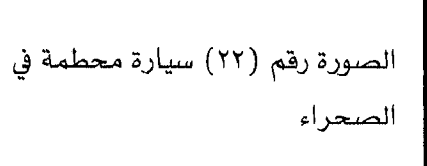


الصورة رقم (٢٠) طهي الطعام في الذفينة



الصورة رقم (٢١) البدو في الدفينة





الصورة رقم (٢٢) سيارة محطمة في الصحراء



الصورة (٢٣) الوزير يرسم أزهار الصحراء



اليوم الثالث

مَتاهَة في الصَّحراء

التاسع والعشرون من مارس

الساعة السادسة والنصف صباحاً

استيقظت من النوم، كانت درجة الحرارة تسع درجات مئوية، والبئر في هذه المنطقة ليست كالبئر في عشيرة أو الجعّرانة، إذ لايوجد حولها جدار، فهي لا تخرج عن كونها حفرة بسيطة، ولاشيء غير ذلك، والماء المستخرج منها طعمه مالح، وهناك بئر أخرى، لكن لايوجد فيها ماء، ربما أنها جفت، لاأحد يعرف السبب.

الساعة الثامنة والربع

غادرنا المكان والطريق الذي سارت عليه السيارات صار رخوًا، وطبقا لما قاله شاكر السائق: أمطرت السماء مرتين خلال شهر شعبان ورمضان، وبدت هذه المنطقة بعد هطول الأمطار كأنها بحر واسع، لذا لاتزال بقع الماء تنتشر هنا وهناك، والأمر بالنسبة للسيارات كان صعبا؛لأن العجلات كانت تغوص أحيانًا في الرمال، نتيجة لليونة التربة، وكان هذا يحدث كل خمس دقائق أو ست، بينما كانت السرعة نحو ٣٠ أو ٤٠ كيلاً في الساعة.

بعد ساعة تقريباً عبرنا هذه المنطقة الصعبة بسلام، ولكن فجأة تحرك السائق تجاهنا، وقال لنا شيئا عجيبًا، قال إنه يشعر بأنه لايمضي في الطريق المعهود، وبالنسبة لنا أيضًا كان الأمر عجيبا، لأننا لم نلاحظ أي أثر لعجلات سيارات، أو أي أثر لأحد يكون قد مضى من هنا، كانت

معنا بوصلة، لكنها لم تنفعنا بشيء، وحتى الخريطة الجيدة التي أحضرناها معنا من القاهرة - وطبعت في إنجلترا - لم تكن لها فائدة، فلم نكن نعرف في أي مكان نحن وسط صحراء الجزيرة العربية، لقد ضللنا الطريق بكل تأكيد!!

تحاورنا وتناقشنا مدة خمس دقائق أو أكثر عما يجب أن نفعله: إذا اتجهنا شرقًا مرة بعد مرة ربما وصلنا إلى الرياض، أو إلى أية قرية في الطريق إلى الرياض، ويمكن أن نسأل أحدًا هناك، وحتى هذا الأمر لم يكن مؤكدًا لنا، ولحسن الحظ لم تكن الحرارة مرتفعة، وكان النسيم يهب عليلاً، ولكني أعتقد أن هذا الجو اللطيف لم يستمر إلا يومًا واحدًا فقط.

وحينما كنا في حوار ومناقشة كان المهندس ميتسوتشي مشغولاً بفحص الرمال والصخور، وكان شاكر السائق يبحث وينظر هنا وهناك، يستطلع الطريق الصحيح، وإذا به يصيح فجأة: ياأخي! ياأخي! ونظرنا فشاهدنا من بُعْد رجلين يتجهان نحونا، اعتقدنا أنهما جن من الصحراء، أو أنهما اثنان من قطاع الطرق، فشعرنا بالخوف الشديد.

قدما إلينا، وهما يمشيان الهوينى .. وأدركنا أنهما من رعاة الغنم، فقد كانا يرتديان (المشلح)، وعرفنا من مظهرهما أنهما من الرعاة الأثرياء، لأن الرعاة العاديين يلبسون عادة ملابس صنعت من فرو الغنم، تعاملا معنا بود، وتحدث شاكر معهما بلهجة نجدية، لكنهما لم يتكلما كثيرًا، أو ربما كان يتكلمان بلهجة مختلفة، ذكر لنا أن الطريق إلى الرياض من جهة الشمال، وأن الطريق الذي نسلكه الآن يؤدي إلى الجنوب.

سألناهما أين يعيشان؟ فأشارا نحو الجنوب، فرأينا قرابة ثلاثين جملاً، وقال: لديهما المزيد من الجمال، وشكرناهما على مساعدتهما إيانا، وتابعنا رحلتنا ثانية بسرعة ٨٠ أو ٩٠ كيلاً في الساعة، كانت المنطقة سهلة منبسطة يسهل على العربات اجتيازها، فمضينا في الطريق مسرعين.

خيال السحاب الأسود وبحيرة الأحلام

بعد ثلاثين دقيقة أمكننا مشاهدة ثلاث عربات تتحرك، وبعدها بلحظات قليلة رأينا سحابًا أسود يبدو في جزء بسيط من الأفق، وحين اقتربنا منه أدركنا أنه ليس بسحاب بل صخرة صغيرة، وماجعلنا نظن أنه كذلك، هي تلك الصخور التي يقال لها «حَرَّة» والتي سبق ذكرها.

الساعة الحادية عشرة والنصف صباحاً

شاهدنا أمامنا بحيرة كبيرة من الماء، ومضينا نحاول الوصول إليها، أو الاقتراب منها، إلا أننا أدركنا أننا نمضي خلف سراب خادع، السراب المعروف في الصحراء، السراب الذي يخدع من يمضي وسط الصحراء، كانت هذه أول مرة بالنسبة لي أخوض هذه التجربة، أي المضي خلف السراب. والأمر الآن يختلف عن ذي قبل، فنحن نسير بالسيارة، تلك الآلة التي صنعتها يد الحضارة، وحين شاهدنا هذا السراب، أمكننا في الحال أن ندرك أن مانراه ليس بحيرة ماء، بل هو سراب، لأن السيارة بسرعتها تجعلنا ندرك الزمن سريعًا، لكن إذا كنا نسافر في الزمن القديم على البعير حاملين قربة ماء وتمَرًا، ومضينا تحت أشعة الشمس المحرقة؛ ورأينا هذا السراب فهل ياترى كنا نظن أنه فعلاً سراب ؟!

ربما كنا سنمضي ونمضي تجاه هذه البحيرة الخيالية بحيرة الأحلام. التي مهما حاول المسافر الوصول إليها فلن يصل أبدًا، لأن ما يشاهده ليس إلا السراب، وعندئذ ستنتابه مشاعر الحزن والغم والبؤس.

ويمكنني الآن أن أتخيل قسوة الحياة التي عاشها العرب. ونحن الآن في حاجة إلى قوة نفسية، وقوة جسدية، وقوة ذهنية، وسط هذه الصحراء.

الصحراء العربية (عَفِيف)

الساعة الثانية عشرة إلاربعاً

بعد تجربة هذا السراب الخادع، وصلنا إلى عفيف، وبسبب هذا الجو المطر كنا نرى حشائش خضراء منتشرة من حولنا، وشاهدنا في وسط هذه المنطقة خمسة رجال أو ستة من البدو، يسقون عشرين أو ثلاثين رأسًا من الغنم، في ذلك المكان الذي يقع على بعد ٢٥ كيلاً من الدفينة، وقد قضى «داوتي» هنا ليلة مع رجال القوافل العربية، وكتب في كتابه (الجزيرة العربية) [١٢] تفصيل ذلك، والحقيقة أن معلوماته مهمة للتعرف على كيفية حياة العرب في تلك الأيام، ولاأريد أن أنقل هنا كل ماكتب، ولكن سأكتفي بذكر السطور التالية:

«وصلنا عفيف قبل غروب الشمس بساعتين، وكانت هناك بئر محاطة بأحجار بركانية (من صخور الحرار)، تتسابق القوافل في الوصول إلى هذه البئر بأسرع ما يمكن، وحين وصلنا إلى هناك رأينا قافلة تحيط بها، وكان رجالها منهمكين في سحب الماء (بالحبال والمحال)، ولديهم عدد كبير من الجمال تريد أن ترتوي، لهذا كان رجال القافلة مشغولين بعملهم، وحول هذه البئر كانت الأرض صلبة وملساء. يتزحلق الإنسان من فوقها، وحركة رجال القافلة صعبة وخطرة، وفجأة تزحلق أحد الرجال وسقط في البئر، وأسرع إليه رفاقه وأنقذوه، والعرب متعاونون تماما في مثل هذه الظروف، وهم منذ الصغر يعرفون كيف يردون الآبار، وكيف ينزلون إلى البئر، وكيف يتعاملون معها، والرجل الذي أُنقذ تحطم عموده الفقري، وقبل أن ترحل القافلة كان قد لقي حتفه، ثم وردت قافلة أخرى بعد مغادرة القافلة الأولى، قضت مايقرب من ثلاث ساعات لسقي جمالها، والتزود بما يلزمها من ماء.

وقد رأيت آثار وجود الإنسان في هذه المنطقة من خلال بقايا النيران التي تركته قبيلة قديمة

---

(١٢) انظر Travels in Arabia Deserta . ص ٢٦٠ وما بعدها.

اشتهرت بصيد الغزلان، ورأيت بقايا عظام الغزلان، وتعجبت، كيف كان هؤلاء الصيادون يصيدون الغزلان هنا، ومن خلال مناظر الطبيعة في هذا المكان يبدو عدم وجود شيء على الإطلاق .. فكيف كان هذا يحدث، حتى بالنسبة للعرب ؟ هذا أمر غريب! ثم جاءت القافلة التالية، وشاهدتُ الناس يشربون الماء والمريس [١٣] وذلك قبل ساعتين من غروب الشمس، على أنهم لن يشربوا شيئًا بعد ذلك في الطريق، ولن يتناولوا أي شيء خلال سفرهم. أريد أن أجرب هذا، لكنني بطبيعة الحال لن أستطيع!

وفي الصحراء لايمكن أن تطلب الماء من جماعة أخرى. وذات مرة طلبت الماء من رجل من الحضر، طلبت منه أن يعطيني كوبًا من الماء، مع أنني عالجت زوجته حين مرضت. إلا أنها حين رأت وجهي أبعدت قربة الماء، كما لو كان الأمر عجيبا بالنسبة لها. وحاولت مرة بعد مرة أن أطلب الماء، وأخيرًا وفي النهاية أعطتني قليلا من الماء. والناس هنا لايهتمون بالآخرين. هذه هي التقاليد هنا: كل في حال شأنه.

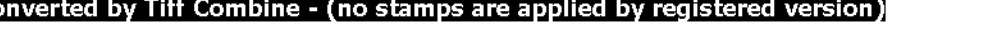
وأقل درجة حرارة هنا هي ٧٢ درجة فهرنهيتية، ودرجة حرارة ماء البئر ٧٩ درجة فهرنهيتية، بينما الارتفاع عن سطح البحر ٤٦٠٠ ياردة.

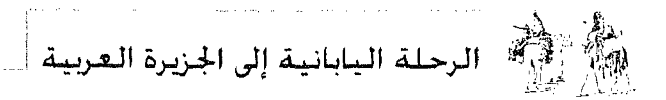
وعفيف محاطة بهضاب من صخور الحرة، وكثير من أشجار السلم التي شاهدت مثلها في سورية، والجو حار جدًا، فرجال القوافل العربية كانوا يشتكون من حرارة الشمس».

بعد أن أخذنا قسطًا من الراحة بدأنا التحرك نحو القاعية، وهي تبعد عن مكاننا الآن بحوالي ٨٠ كيلاً، كان الطريق سهلاً منبسطًا، لكن المنظر من حولنا يتغير ويتجدد، ولهذا لم نكن نشعر بالملل.

وفي الطريق رأينا ثلاثة من البدو، فتحدثنا معهم، وقالوا لنا: إن الأمطار هذا العام هطلت

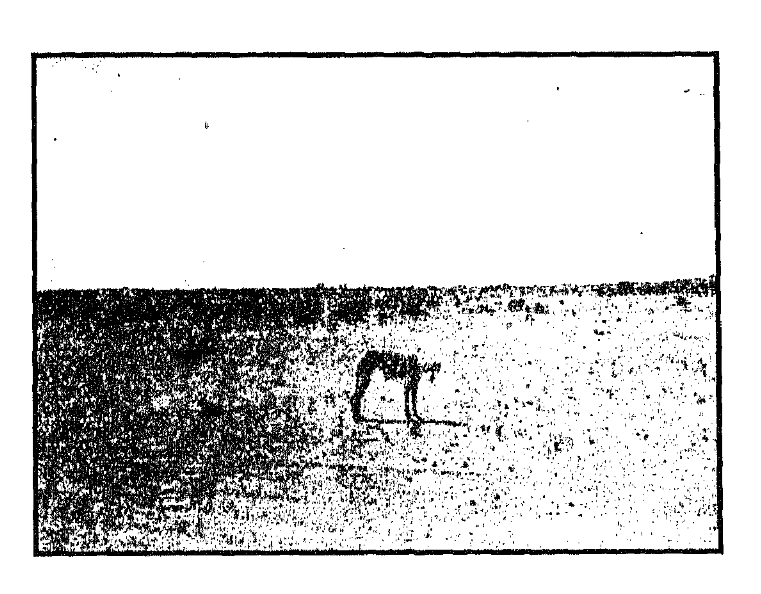
(١٣) التمر المروس بالماء وفي المعجم الوسيط: المريس ما مرسته في الماء من التمر ونحوه. مادة (مرس).





بغزارة، وهذا خير كثير، كان معهم كلب، ربما كلب حراسة، وهو كلب صحراوي لونه مثل لون رمال الصحراء، ويبدو سريع الحركة، ينطلق كالسهم، وكان الثلاثة يرتدون المشالح التي تدل على مدى ثرائهم.

وشاهدنا في طريقنا بقايا جمال نفقت في الصحراء، كان أحدها قد نفق حديثًا.



الصورة رقم (٢٤) كلب في الصحراء



الصورة رقم (٢٥) أطفال في الصحراء



الصورة رقم (٢٦) صخور الجرانيت



الصورة رقم (٢٧) بقايا جمل نفق

إذ كان جسمه لايزال في مرحلة التحلل، بينما كان جمل آخر قد تحلل تماما، ولم يبق من جسده غير الهيكل العظمي،وحين شاهدناها شعرنا في البداية بالأسى والحزن على هذه الجمال، ولكن - وبعد أن تعودنا رؤية هذا المشهد - لم يعد ينتابنا الشعور السابق تجاهها.

القَاعِيَّة

الساعة الثانية وعشر دقائق بعد الظهر

وصلنا إلى القاعية، لم يكن لدينا وقت لضرب الخيام، فجلسنا بجانب الشاحنة، وفرشنا السجادة على الأرض، وتناولنا طعام الغداء، كان الطعام كسابقه، لكن أضيف إليه (مانجو) من علب محفوظة، وكانت المانجو لذيذة جدّاً، ونحن الآن على ارتفاع ٨٥٠ مترًا من سطح

البحر، ودرجة الحرارة ٢٨درجة مئوية، وكنا على بعد مائة متر من البئر،حيث لم نر أي بدوي حولها، وشاهدنا القمح البري، وأشجار «الطلح»، والحنظل، وحشرات منها: نمل كبير الحجم، [١٤] وقنفذ، وشاهدنا أشجارًا ونباتات عديدة متنوعة.

بعد تناول الطعام أردت الذهاب لقضاء الحاجة، ووجدت لهذا الغرض فجوة نصف قطرها حوالي ١٥ مترًا وعمقها ٣ أمتار، ولايبدو أن يد إنسان قد حفرتها، وذكر المهندس ميتسوتشي أنها نتجت عن عوامل التعرية في المنطقة.

غادرنا المكان في الساعة الثالثة والثلث، قاصدين «درب الحج في الوشم» ومضينا في طريقنا، حيث كنّا – طبقا للبوصلة التي معنا– في منطقة تقع شمالاً بـ ٢٤.٥درجة، وشرقًا بـ ٣٤ درجة، وكنا قد قطعنا مسافة ستمائة كيل من جدة. وانطلقنا في طريقنا بسرعة وصلت أحيانًا إلى مائة كيل في الساعة.



الصورة رقم (٢٨) الكاتب يقف عند القاعية

(١٤) يسمي الرحالة (الجعل) نملاً كبيراً





الصورة رقم (٢٩) طهي الطعام



الصورة رقم (٣٠) صخرة غريبة الشكل في القاعية

هضبة صخرية غريبة

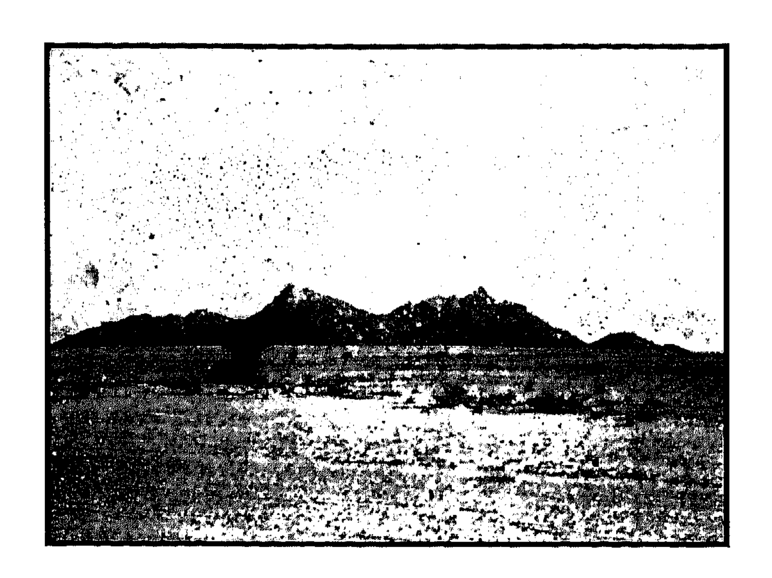
كان المهندس ميتسوتشي يوقف السيارة أحيانا ليُجري بعض الأبحاث الجيولوجية على صخور المنطقة، وبدأنا نشاهد أشكالاً غريبة من الصخور والهضاب التي نمر بها، فأحيانًا تأخذ هذه الصخور شكل الأهرامات، وأحيانًا شكل أبي الهول، وأحيانًا تكون مثل الخنافس أو البقر أو النمور، ولهذا لم نشعر بالملل أبدًا طوال هذا الطريق، كل هذه التشكيلات تمت بطبيعة الحال بمرور أزمان عديدة، نتيجةً لعوامل التعرية المختلفة في الصحراء، فكأن الصحراء أمامنا تحولت إلى متحف للتماثيل الرائعة.

وبعد فترة اختفت الصخور والأعشاب الخضراء، وتحول المنظر من حولنا إلى مشهد لمساحات شاسعة بنّية اللون، وبعد ذلك بقليل رأينا عمودين ارتفاعهما متران، وبينهما مسافة أربعين مترًا، وحين اقتربنا منهما عرفنا أنهما من صنع الإنسان، وأنهما علامة على الطريق، وكما يقول عبدالسلام عن هذين العمودين: هما علامة تدل على حدود الرياض، وعلى أن الطريق الرئيس هنا يؤدي إلى الرياض.

شيد العمودان بالإسمنت الخرساني، ولاتوجد عليهما أي كتابة تشير إلى شيء، كما لايوجد شيء من زخرفة، ولكن في مثل هذه الصحراء حين شاهدنا هذا الشيء الذي صنعه الإنسان، فإنه كان لنا بمثابة متنفس ومدعاة للراحة النفسية.

وبعد عشرة أكيال من هذه النقطة شاهدنا عمودًا على شكل مثلث مكتوبًا على إحدى جهاته: الرياض، وكتب عليه من الجهة الأخرى: عنيزة وبريدة.

وقد أقيم هذا العمود في عهد الملك عبدالعزيز.



الصورة رقم (٣١) مرتفعات صخرية تأثرت بفعل عوامل التعرية



الصورة رقم (٣٢) علامة الطريق وبجوارها السائق شاكر

حفل شاي في وادي الدوادمي

الساعة السادسة مساءً

في الطريق رأينا جبل (كبشان)، [١٥] ثم وصلنا إلى الدوادمي، وكانت الشمس قد غربت إلا أن الشفق الأحمر لايزال ماثلا في الأفق، وبدأت درجة الحرارة تنخفض تدريجيّاً، وحين نزلنا من السيارة شعرنا بالبرودة، ووصلت الشاحنة التي تقل مرافقينا العرب في أعقابنا، وبدأوا فورًا يضربون الخيام، ويعدون الطعام.

قال عبدالسلام: كان علينا أن نستريح في مكان يلي هذا المكان بمائة كيل، ولكننا

الليلة سنستريح هنا، وغدًا في المساء سوف نستريح في الجبيلة التي تقع على بعد خمسين أو ستين كيلاً من الرياض، وصباح بعد الغد سوف نصل إلى الرياض، وقد أخذ عبدالسلام رأينا في هذا البرنامج، فوافقناه فيما رأى.

كان المكان الذي ضربت فيه الخيام على بعد ثلاثمائة متر من استراحة الملك، والاستراحة قصر على شكل مبنى مربع، كل ضلع فيه حوالي ٢٠٠متر، والبناء من الطين واللبن، وفي كل ركن من أركانه الأربعة برج للمراقبة، ويضم القصر غرفًا مبنية من الطين، وكلها على شكل مربع، اعتقدنا في البداية أن هذه قرية الدوادمي، لكن القرية كانت على بعد كيلين أو ثلاثة من هذا الموقع، وهي محاطة بأشجار النخيل، ونحن هنا خارج نطاق القرية.

شاهدنا قصر الملك في جدة، وفي الرياض فيما بعد، وكان كل قصر يقع خارج العمران، وكل القصور - ماعدا قصر جدة - مشيدة بالطين واللبن، مثلها مثل بيوت الناس العاديين،

---

(١٥) هي ثلاثة جبال سود كبيرة تسمى كبشان، ومفردها كبشة، أما كبشان فهو منهل معروف يقع بالقرب منها. انظر عبدالله بن خميس، المجاز بين اليمامة والحجاز، ص ص ١٢٦-١٢٧ .



والنوافذ والمداخل كانت قليلة جدّاً، ولابد أن يفهم أن هذا أمر عام، وحول النوافذ خشب أبيض، مما يعطي شكلاً جماليّاً، وتناسقًا بين النوافذ والجدران المبنية من الطين واللبن.

وهذا النوع من الفن المعماري، أو الزخرفة المعمارية كان مقصوراً على الملك والأسرة المالكة والأسر الثرية، وبالقرب من السقف نُصِبَ «ميزاب» ينساب منه الماء عندما يهطل المطر. وغربت الشمس، وعم الظلام، لاشيء يظهر إلا نور مصابيح القصر.

وذكر لنا عبدالسلام أن للقرية أميرًا كان المفروض أن يستقبلنا، إلا أننا وصلنا وقت صلاة المغرب تمامًا، وهذا وقت ذهاب الأمير للصلاة في المسجد، وبعد انقضاء الصلاة سوف يأتي للترحيب بنا.

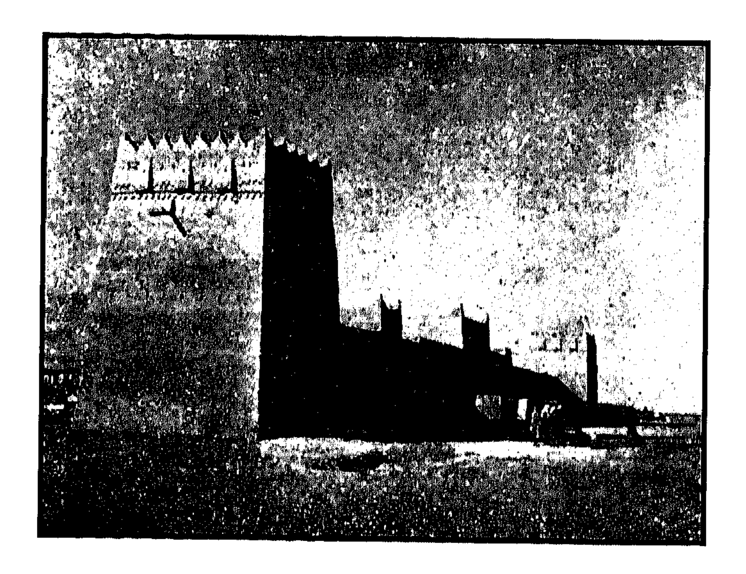
وقال أيضًا: «إن في القصر جهازًا لاسلكيّاً صغيرًا، لإرسال البرقيات، وطبقا للتقاليد المتبعة يمكنكم أن ترسلوا برقية للملك لاطلاعه وإخباره بوجودكم، ووصولكم بأمان، شاكرين له ذلك، وتخبرونه بوقت وصولكم في يوم الجمعة» وهكذا قررنا إرسال برقية إلى الملك.

دخلنا القصر إلى غرفة جهاز اللاسلكي، كان هناك رجلان، أحدهما هو المسؤول عنه. رحب بنا بحرارة، والآخر يعمل على الآلة التي صنعها «ماركوني»..

أراد الوزير المفوض الياباني يوكوياما أن يرسل برقية إلى القاهرة أيضًا، إلا أن البرقية سوف ترسل أولاً إلى الرياض، ومنها إلى القاهرة. فالجهاز هنا ضعيف ، ويستخدمونه عادة للاتصالات المحلية، ويبدو أن الرجل المسؤول عن جهاز اللاسلكي سوري، بينما الآخر الذي يعمل على الآلة سعودي من نجد، كلاهما هادئ ومهذب جدّاً، قام النجدي بإرسال البرقية إلى الملك، أرسلها بسرعة، لأنها كانت باللغة العربية، أما برقية الوزير يوكوياما فكانت بالإنجليزية، لذا قام الرجل المسؤول عن اللاسلكي بإرسالها.



الصورة رقم (٣٣) صورة تضم الوفد مع الأمير أمام قصر الدوادمي



الصورة رقم (٣٤) قصر الدوادمي

وبعد أن انتهينا من إرسال البرقيتين قال المسؤول عن السيارات التي تقلنا: إنه يريد أن يدعونا لتناول الشاي، فذهبت مع الوزير.

كانت مساحة الغرفة المعدة لتناول الشاي في القصر في الطابق الثاني حوالي ٢٠مترًا مربعًا، كان الجدار مطليا باللون الأبيض، بينما كان السقف عاليًا جدّاً، وفرشت أرضية الغرفة بفرش بدا أنه مصنوع من الريش!! ووضعت وسائد يتكئ عليها الزائر وهو جالس.

كان في الغرفة ثمانية رجال من العرب، يرتدون المشالح، وجلسنا جلسة عربية على فرش الغرفة، وبجوار الوزير جلس مضيفنا المسؤول عن النقل، وجلس بجواري عبدالسلام، وجلس بجوار عبدالسلام شيخ يبلغ من العمر حوالي الستين عامًا، ربما يكون شيخ هذه القرية، ثم بقية الضيوف، رحب بنا مضيفنا ثم بدأوا في تقديم القهوة، ثم الشاي بالنعناع والقرفة، شربنا في أكواب من الزجاج، ثم قدموا لنا حليب الماعز، وهو الحليب الذي تشتهر به هذه المنطقة، ويتم غلي الحليب، مضافاً إليه كمية كبيرة من السكر، ويظل يغلي فترة طويلة.

فرغنا من شرب الحليب الذي كانت تنبعث منه رائحة ما، ربما تكون رائحة الماعز.

وذكروا لنا أن شرب الحليب قبل تناول الطعام مفيد للصحة. ثم أعادوا علينا الشيء نفسه مرة بعد مرة: القهوة ثم الشاي ثم الحليب. في تلك الأثناء تحدثنا عن أمور كثيرة مع المسؤول عن النقل، ومع بقية الضيوف، ومن خلال طريقة حديثهم شعرت أنهم كانوا يهتمون تماماً بكل كلمة تصدر عنهم، ربما لأن هذه أول مرة يتحدثون فيها مع أجانب، وربما كان لديهم نوع من الحذر، لكن بعد مدة تغيرت طريقة حديثهم، وصاروا أكثر ألفة، أخذوا يسألوننا أسئلة شخصية كثيرة، وانبرى أحدهم يتحدث عن نفسه وعن تجاربه، تحدثنا معًا عن تقاليدنا في اليابان، وعن الدين، وعن الصيد في الصحراء، والبترول في الأحساء والدمام، وعن الملك. كانوا يوجهون لنا أحيانًا الأسئلة مباشرة، وأحيانا كانوا يسألوننا عن طريق عبدالسلام.

كانوا يسألون بطريقة مهذبة جدّاً، قال أحدهم: إنه سافر إلى منطقة الأحساء، ويبدو أنه

تاجر، ثم أردف قائلاً: إنه رأى عيون الماء المعدنية تنساب في جدول. وكنت أنا والمهندس ميتسوتشي قد خططنا لزيارة الأحساء والبحرين والكويت بعد زيارة الرياض، فبدت قصة الرجل عن المياه المعدنية مشوقة لنا، وكذلك بدا حديثه عن آبار البترول مشوّقًا.

ذكروا لنا: أن عدد سكان القرية حوالي ٣٠٠نسمة، وفيها ١٢٠ بئر ماء. وبعد ساعة انتهى حفل العشاء.

الساعة الثامنة

جاء الأمير سعد الفيصل [١٦] لتحيتنا، كان مظهره يدل على قوة جسمه وجدّه، وأنه لا يهاب شيئًا، وبدا أمامنا بدوياً أصيلاً. كأنه في الخمسين من عمره، وذكرني مظهره هذا بسفير المملكة العربية السعودية في القاهرة الشيخ فوزان السابق.[١٧]

حيّانا الأمير باحترام، وتحدث بلهجته النجدية، ونقل عبدالسلام ماقاله إلى الفصحى.

الساعة التاسعة إلا الربع

غادرنا القصر إلى الخيام، حيث تناولنا طعام العشاء، كان الطعام كالمعتاد. إلا أن الفاكهة الطازجة انتهت، وحلت محلها الفاكهة المعلبة.

ومن الدفينة إلى هذا المكان قطعنا ٣١٣كيلاً، ومن القاعية ١٠٦أكيال. كان الجو مظلمًا، ولكن كان من الممكن أن نشاهد نور القصر، ولاشيء غير ذلك.

---

(١٦) صواب الاسم (سُعَيِّد الفيصل) تصغير سَعْد، وهو من خدم الملك عبد العزيز المشهورين كان أميراً لبلدة الدوادمي وما يتبعها من القرى (سنة ١٣٥٨هـ) (حمد الجاسر).

(١٧) كان وكيلاً للملك عبدالعزيز، وقائماً بأعمال مفوضية المملكة العربية السعودية في مصر، وتعرّف على الرحالة أثناء دراسته في القاهرة، وتوفي في القاهرة نحو عام ١٣٧٣هـ- ١٩٥٤م(انظر ترجمته في الأعلام، للزركلي، مج ٥ ص



اليوم الرابع

الاتجاه نحو الرياض

الثلاثون من مارس

الساعة السادسة صباحاً

درجة الحرارة تسع درجات مئوية، استيقظنا من النوم، ورحت انظر فيما حولي، فرأيت منطقة نجد، وصحراء نجد، وأخذت أطالع المنطقة الواقعة خارج الدوادمي التي أظن أنها لم تتغير منذ آلاف السنين.

الساعة السابعة والنصف

تناولنا طعام الإفطار، وقدم الأمير سعد الفيصل (سُعَيِّد)، مع خادمه إلى الخيمة، ودعانا إلى تناول الشاي، فذهبنا إلى القصر، وماحدث ليلة أمس تكرر اليوم، إلا أن الغرفة كانت مختلفة غير أنها كانت من الداخل شبيهة بتلك التي جلسنا فيها ليلة أمس.

حين دخلنا الغرفة قدم أحد الخدم، يحمل وعاء به بخور (مبخرة) مصنوعًا من الخشب، وجلسنا على الأرض متكئين على الوسائد. فكانت رائحة البخور بالنسبة لي عجيبة، ومثل ليلة أمس قدمت لنا القهوة ثم الشاي ثم حليب الماعز ثم القهوة مرة أخرى، وأصبحنا أكثر تآلفا عن ذي قبل، أقصد عما كنا عليه ليلة أمس.

كان موضوع الحديث بعيدًا تمامًا عن أي موضوع سياسي، كان يدور في معظمه عن التقاليد والثقافة، وحين تحدثنا عن البخور، قلت للأمير: إن اليابانيين مهتمون كثيرًا برائحة البخور



منذ القدم، وقال الأمير: إن هذه المبخرة مصنوعة في الرياض، وهي قديمة جدّاً جدّاً، وذكر أن العرب يحبون البخور منذ الأزمنة القديمة، وقال الأمير أيضًا: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن أحب الأشياء إليه ثلاثة: الطيب، والنساء، والصلاة [١٨]. وهذه الكلمات تعد سنة عن الرسول الله صلى الله عليه وسلم، واستطرد الأمير قائلاً: «إن البخور المستخدم في مناطق نجد والحجاز يأتي في معظمه من الهند، وأن ثلث دخل هذه القرية ينفق على البخور». وعرفت فيما بعد أن البيوت الثرية تستخدم بخورًا مستوردًا غاليّاً جدّاً. وعلمت أن الملك يحب البخور كثيرًا، وقد اشتهر هذا الأمر عنه، وذكر عبدالسلام «إن أعضاء الإرساليات النصرانية يستخدمون البخور أحيانًا، حين يقومون بمحاولاتهم في تنصير المسلمين».

وعرفنا حقّاً أن البخور شيء ثمين وغال، وفي مصر - وهي أيضا من بلدان الشرق الأوسط - يستخدمون البخور، حتى النصارى الأرثوذكس والأقباط. والسوريون لديهم أيضًا عادات تتعلق بإطلاق البخور، فالمسلمون يعلقون المباخر كل يوم جمعة، ويطلقون البخور بكثرة، بينما النصارى يطلقون البخور يوم الأحد، لا الجمعة.

خف والبئر المرعب [١٩]

خرجنا بعد حفلة الشاي، وودعنا الأمير أمام القصر، واستأنفنا السير في تمام الساعة الثامنة صباحًا، كان الطريق مستويًا سهلاً، والحرارة ترتفع تدريجيّا، أنفي وشفتاي أصبحت جافة، فوضعت عليها بعض الكريم لترطيبها، ومعالجتها من الجفاف.

(١٨) الحديث أخرجه النسائي، ورواه الإمام أحمد في مسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه، ونصه: قال رسول الله ﷺ: « حُبّبَ إليّ: الطيبُ والنساءُ، وجُعل قرةُ عيني في الصلاة» ابن الأثير الجزري، جامع الأصول في أحاديث الرسول، مج٤، ص٧٦٦ .

(١٩) تقع في إقليم السر في سرة نجد.

الساعة العاشرة إلا الربع صباحاً

بعد أن قطعنا ستين كيلاً من مسيرتنا، وصلنا إلى «خُفّ»، حيث تقع صحراء «النفود» في جهة الشرق منها. وهي رمال ناعمة جدّاً؛ ولهذا فلا توجد نباتات على الإطلاق، والصحراء قاحلة، وهي تمتد من وادي السرحان حتى جبل شمر، ويسمون هذه الصحراء صحراء «خُفّ»، وهناك صحراء أخرى شبيهة بها، هي صحراء الربع الخالي.

وصحراء النفود تعني منطقة هضبة نجد [٢٠]. والمكان الذي وصلنا إليه الآن هو جزء من صحراء النفود، والعرب - حتى الذين اعتادوا منهم السفر في الصحراء - يهابون هذا المكان، فعبور صحراء النفود يحتاج إلى راحة كاملة وماء، والناس يميلون إلى تجنب عبور هذه الصحراء، والمضي من طريق آخر، ولكن لم نكن نتخيل كيف تكون صحراء النفود، وقررنا أن نتناول طعام الغداء، طبقاً لنصيحة العرب المرافقين.

لاوجود لأي من البيوت أو الخيام، ولايوجد أثر لبدوي، لاشيء، كل ما يمكن أن نشاهده بئر صغيرة، وعلى الرغم من أنه لم تكن هناك رياح، فإن الفضاء كان لونه أصفر.

توقفت سيارتنا عند هذه البئر الصغيرة،وبعد فترة قدم إلينا ستة من البدو مع أغنامهم، يقصدون الماء، كانت رائحة أجسامهم ورائحة الغنم نافذة، لم نكن نتحملها، تحرك البدو بهمة ونشاط وبسرعة فائقة، فأخرجوا الماء من البئر، وسقوا الأغنام حتى ارتوت، كل ذلك تم بخفة، وفي حركات سريعة.

ظل هؤلاء البدو يحملقون فينا، ربما كنا بالنسبة لهم شيئًا عجيبًا، فقد كان غريبًا أن يروا أجانب في هذا المكان.

(٢٠) يعتقد الباحث بأن نجداً كلها صحراء قاحلة، وهو بلا شك غير صحيح لأن النفود ليست إلا جزءاً، يسيراً من منطقة نجد الواسعة العريضة، ذات الواحات الكثيرة، والخصبة (حمد الجاسر)



بدأ عبد السلام يشرح لهم، فقال «إن هؤلاء الناس (أي نحن) أصدقاء الإمام». والبدو يسمون الملك إمامًا، وأعطاهم عبد السلام بعض النقود الفضية، وبدأوا ينشغلون بأنفسهم، ثم مضوا إلى حال سبيلهم.



الصورة رقم (٣٥) البئر في خف



الصورة رقم (٣٦) الكاتب في خف

كان لدينا متسع من الوقت فُضربَتْ الخيام و بُدئ في إعداد الطعام، وقام رئيس الطهاة بمتابعة الرعاة البدو، وراح يناقشهم في شراء شاة، ونجح في النهاية.

وبقي لدينا وقت كاف حتى إعداد الطعام، فأخذنا بعض الصور، وقام المهندس ميتسوتشي بدراسة جيولوجية المنطقة، وأخذنا نتطلع إلى البدو، ونشاهد كيف يسقون أغنامهم، كانوا يجمعون الأغنام بإصدار أصوات الباء والراء [٢١]. وأعتقد أن هذا في الأصل يعني انظر أو انتبه!!

في مصر والحجاز وسورية وفلسطين، انظر وانتبه تعني «شوف»، وهم لا يستخدمون فعل الفصحى (رأى)، وأظن أن ظهور حرف الباء مع الراء أمر غير عادي. كانت ملابس البدو مثل تلك التي شاهدناها على البدو من قبل، لكن السروال كان قصيرًا. كانت هناك امرأة، ربما تكون زوجة شيخ البدو، ومعها طفل يبلغ من العمر ثلاث سنوات تقريبًا، كانت المرأة مغطاة تمامًا بملابس سوداء، ورأسها لم يكن يُرى منه غير عينيها، ومن يدها أو من كعبها كان يمكن رؤية بشرتها السوداء، كانت أكثر سوادًا من أي بشرة شاهدناها من قبل، والطفل كان نحيفًا جداً، ربما كان في حاجة إلى غذاء.

بدأ الطفل الصغير يتجه ناحية قطيع الغنم، وراح يلعب مع بعض الغنم، ويركب على ظهرها، كما لو كان الأمر طبعيّاً جدّاً، فشعرت بأنها الحياة الطبيعية في الصحراء.

كانت البئر صغيرة جدّاً، قطرها حوالي متر واحد فقط، لكن هذه البئر الصغيرة - بالنسبة للبدو - ذات قيمة عظيمة، فالبئر هي رفيقة حياتهم، وعلى الرغم من أن ماء البئر يحتوي على نسبة عالية من الملح تجعله غير صالح تمامًا للشرب، فإن الأمر لم يكن يهمهم في شيء، فهم يشربون هذا الماء، وكأنهم يشربون الماء العادي الصالح للشرب.

تحدثت مع زعيم البدو أو شيخ البدو، وسألته عن عدد القطيع الذي يملكه، لكنه لايستطيع أن

(٢١) نداء الأغنام بالألف والراء (إر)، ويكون للشياه الخاصة.



يعد أكثر من الرقم عشرة، لهذا أشار إليّ بأصابعه العشرة، ثم عاد وكرر ذلك تسع مرات، وبهذه الطريقة عرفت أن لديه ٩٠ رأسًا من الغنم، وسألته إن كان يعرف الرياض فقال: «نعم، العام الماضي ذهبت لأبيع بعض رؤوس القطيع» فضحكت وقلت له على سبيل المزاح: أنا ذاهب إلى الرياض الآن، فهل يمكن أن آخذ ابنك معنا؟ فرد بالنفي «لا .. لا.. لايمكن أن يأخذه أحد .. لابد أن يبقى معي دائمًا».

هكذا يقضي هؤلاء البدو حياتهم فترات طويلة على الوتيرة نفسها، لا تغيير على الإطلاق .. ولا تغيير مستقبلاً، في مثل هذه الظروف الصعبة جدّاً.. لكن الظروف من حولهم تغيرت، ولا تزال تتغير، ومن أوضح الأمثلة على هذا أن الملك يذهب كل عام إلى مكة للحج مع خمسمائة شاحنة (عربة نقل) ملأى بالحجاج، وهذا يؤدي بالتدريج إلى التمدن والتحضر .. وأحيانًا ودون أن ينتبه هؤلاء البدو يتأقلمون مع التغييرات الجديدة، لكنهم لا يشعرون بهذا بطبيعة الحال.

ولهجتهم العربية يصعب فهمها جدّاً، وهي قريبة من العربية الكلاسيكية، إلا أن نطقها مختلف كثيرًا، وهذا ماشعرت به حين كنت أتحدث معهم.

كانت درجة الحرارة درجة مئوية واحدة، والارتفاع عن سطح البحر كان ٧٢٠مترًا. أكلنا كثيرًا، فالسفر وسط الصحراء جعلنا نشعر بالجوع أكثر، لا أدري لماذا؟ جلسنا على الأرض، وعلى الطريقة العربية أكلنا بأيدينا ... وهذا شيء مناسب تمامًا بالنسبة للطعام العربي، لا يوجد فاكهة طازجة، ولا خضروات طازجة، بل يوجد لحم غنم فقط.

وحين شرعنا في أخذ قسط من الراحة والنوم القليل، سمعنا صوت سيارة مسرعة، قادمة إلينا، وتلتها سيارة أخرى، ثم توقفت السيارتان: سيارة بيوك وسيارة فورد، توجه إليهما عبدالسلام ورئيس الحرس وراحا يتحدثان مع أحد الرجال في السيارتين، ثم عاد إلينا عبدالسلام قائلاً:

إن مستشار الملك خالد أبا الوليد [٢٢] وسكرتيره ذاهبان إلى جدة، ولما عرفا أننا قادمون إلى الرياض، أرادوا المجيء لتحيتنا. كان مستشار الملك الذي يدعى خالد أبا الوليد في حوالي الخمسين من عمره، أبيض الشعر، أما سكرتيره فكان طويل القامة نحيفًا.

رحبنا بهما في خيمتنا، وقدمنا لهما القهوة والشاي، كان كلاهما يجيد الفرنسية فتكلم معهما الوزير الياباني مباشرة دون مترجم، وكانا ذاهبين إلى جدة في طريقهما لحضور مؤتمر دولي يعقد في باريس في شهر يونيه، ولأول مرة يشاهدان يابانياً، ولذا قال مستشار الملك إنه يحمد الله ويشكره الذي مكنه من رؤية ياباني على أرض الصحراء هنا في المملكة.

كانا يرتديان جلاليب بيضاء من الحرير وعقالاً وغترة وصندلاً، وبدت ملابسهما نظيفة أنيقة مرتبة، كان لخالد أبي الوليد لحية بيضاء طويلة، وسكرتيره كانت له لحية صغيرة جدّاً عند ذقنه وكان له شارب. تحدثنا مدة ثلاثين دقيقة، وكانا في عجلة من أمرهما، فتركانا بسرعة، ومضيا إلى حال سبيلهما.

وفي الرياض سمعت من يوسف ياسين، سكرتير الملك، أنه حين يسافر كان يسافر بسيارة واحدة وخادمين، وكان يقطع المسافة من الرياض إلى مكة في ثلاثة أيام ونصف، فتعجبت كثيرًا! وسوف أشير إلى هذا فيما بعد.

وخالد أبوالوليد - الذي سبق ذكره - ولد في مراكش. [٢٣] وهو واحد من بين أربعة مستشارين للملك، ويعتمد الملك عليه كثيرًا، ويثق به، وكان لدي بعض الكتب العربية التي طبعت حديثًا، في كل منها كان اسمه يذكر دائمًا، فهو رجل مهم جدّاً في السعودية الآن، ولاأزال أتعجب، لماذا

(٢٢) هو خالد بن أحمد أبو الوليد القرقني، من طرابلس ليبيا، حارب الإيطاليين في أثناء احتلالهم طرابلس، ورحل إلى استنبول، ثم جدة، حيث زاول فيها التجارة، فرآه الملك عبدالعزيز، وأعجب به، فعينه مستشاراً وكاتباً في ديوانه، وبعد وفاة الملك عبدالعزيز عام ١٣٧٣هـ عاد إلى طرابلس، وأمضى فيها بقية حياته إلى أن توفي عام ١٣٩١هـ-١٩٧١م؛ خير الدين الزركلي، الأعلام، مج٢، ص ص ٢٩٤-٢٩٥ .

(٢٣) الصحيح أنه ولد في طرابلس بليبيا.

طَلَبَ منا حين التقينا به بألا نخبر أحدًا بأننا التقينا به هنا في الصحراء، وبأنه ذكر لنا أنه ذاهب لحضور المؤتمر الدولي في باريس.

لاأزال أتعجب من هذا الأمر. لكن بعد فترة طويلة استطعت أن أعرف من بعض الباحثين البريطانيين أن زيارته لباريس لم يكن الهدف منها حضور أي مؤتمر فيها أصلاً، بل كان مسافرًا إلى «برلين» في مهمة خاصة،[٢٤] لست متأكدا لكنني عرفت أنه كان من معارضي بريطانيا.

عبور صحراء النفود

الساعة الثانية

وبعد أن غادرنا خالد أبوالوليد بدأنا نشد الرحال، ونغادر المكان متجهين إلى أصعب مراحل رحلتنا هذه. كان الطريق سهلاً ولمسافة ثلاثة أكيال، وكان على السائق أن يقود السيارة بعناية واهتمام بسرعة ٧٠ كيلاً في الساعة.

وبعد قليل لم نعد نرى من حولنا شيئًا سوى الصحراء تحيط بنا من كل جانب، والشمس في كبد السماء من فوقنا، وبعد مسافة وجيزة أخذت عجلات السيارة تغرز في الرمال، ولهذا كان علينا أن نرفع السيارة، وأصيب السائق بحالة من القلق وشد الأعصاب، وتكرر الأمر مرة بعد أخرى، وراحت السيارة تتمايل يمينًا ويسارًا، مما جعل بعضنا يرتمي على بعض، والسيارة تمضي على هذا المنوال، وأمامنا وبين الحين والحين كان يعترض طريق السيارة مرتفع يصل أحيانًا إلى خمسين مترًا، فكان يمثل صعوبة للسيارة وهي ترتفع إلى أعلى، وكأنها ستتحطم، بينما كانت أجسادنا يتراكم بعضها فوق بعض، وتهتز أحيانا كالأرجوحة، وتكرر هذا الأمر كثيراً، مما جعلنا نمسك بالمقابض الموجودة داخل السيارة طوال الوقت، حتى نقلل من شدة

(٢٤) بعثه الملك عبدالعزيز إلى ألمانيا آنذاك في مهمة دبلوماسية.

وقوع بعضنا على بعض، ورغم هذا كانت رؤوسنا تتخبط أحيانا في سقف السيارة.

غير أن الصعوبة البالغة كان يعانيها السائق الذي كان عليه أن ينتبه لكل شيء، ويغير مقبض السرعة مرة بعد أخرى، ويمسك بعجلة القيادة بقوة شديدة.

كان سائقًا متمرسًا ذا خبرة، مما جعلنا نثق به كثيرًا، ونعتمد عليه تمامًا، ورغم أننا غطينا رؤوسنا ووجوهنا بالغتر فإن أنوفنا وآذاننا ملئت بالرمال.

وفي النهاية توقفت السيارة، وكان علينا جميعا أن نقوم بسحبها من الرمال بعد أن انغرست فيها العجلات، وأوشك ماء «المبرد» على الانتهاء. وكان ينبغي لنا أن نسرع، فأصابني القلق وكادت أعصابنا أن تفلت دون استثناء، ومما خفف علينا ما نحن فيه أننا على بعد عشرين دقيقة من المكان المحدد للراحة، ورغم هذا سيطر علينا الخوف والقلق.

سحبنا السيارة وبدأنا السير ثانية، ونحن نتمنى ألا يحدث ما حدث سابقًا، وبعد عشرين دقيقة صارت الرمال أكثر تماسكًا وصلابة عن ذي قبل، وتغيرت الظروف. فتوارى القلق، وشعرنا بالراحة، فقد أصبح الطريق سهلاً وصلبًا، وكان «المبرد» (الراديتر) على وشك أن تنبعث منه رائحة الدخان، فوضعنا فيه ماء الشرب!! في حين كانت العجلات على وشك الاحتراق بسبب الاحتكاك الشديد بالطريق صعودًا وهبوطًا، وبعد دقائق وصلت سياراتنا التابعة لنا من ورائنا، والتقينا معًا وراحوا يرددون:

((سلامتك .....سلامتك ... سلامتك، الحمدلله ...الحمدلله))

وبدا الجميع سعداء جدّاً بعد اجتياز هذه المرحلة الصعبة من الرحلة، قطعنا حوالي أربعين كيلاً، فيما يقرب من ساعة، بسرعة ثمانين كيلاً في الساعة.[٢٥]

(٢٥) مع حساب الوقت الضائع في التغريز.



أخذنا قسطًا من الراحة، تناولنا خلالها الشاي وبعض «البسكويت» وكان كل شيء لذيذًا جدّاً بعد هذه المرحلة من الرحلة، وفي الساعة الرابعة حين بردت السيارة بدأنا التحرك تجاه واحة «مراة».

واحة مراة الخضراء

الساعة الرابعة عصراً

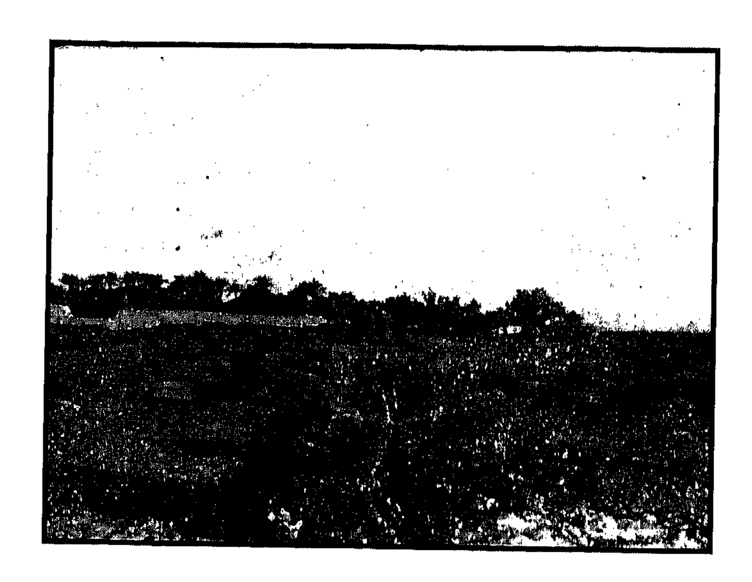
كانت السيارة تنطلق على طريق تحف به أشجار التين القصيرة، كان عدد هذه الأشجار كبيرًا جدّاً،(٢٦) وشاهدنا قطيعاً من البقر يتكون من حوالي عشرين بقرة، كان القطيع يمشي في الاتجاه نفسه الذي نمضي فيه.

وهذا يعني أننا كنا قريبين من الواحة، ومن مسافة بعيدة شاهدنا قرية (مراة) تحيط بها أشجار النخيل. حتى الآن لا أزال أتذكر ذلك المنظر الرائع، منظر الواحة، رمال صفراء، وشمس تسطع أشعتها بقوة، وأشجار التين القصيرة، ثم الآلاف من أشجار النخيل. ياله من منظر ويالها من روعة!! شعرت كأنني وحدي وسط هذه الصحراء، وأن هذا المنظر الرائع كان يستقبلني، يرحب بي يمد إليّ ذراعيه، يحتضنني، أنا القادم من أقصى الشرق، وبالنسبة لي كانت أشجار النخيل هذه مثل «قطرة العين» التي تبعث إلى النفس الراحة والهدوء. لم أر مثل هذه الخضرة منذ غادرت جدة، ومنذ أن دخلت منطقة نجد.

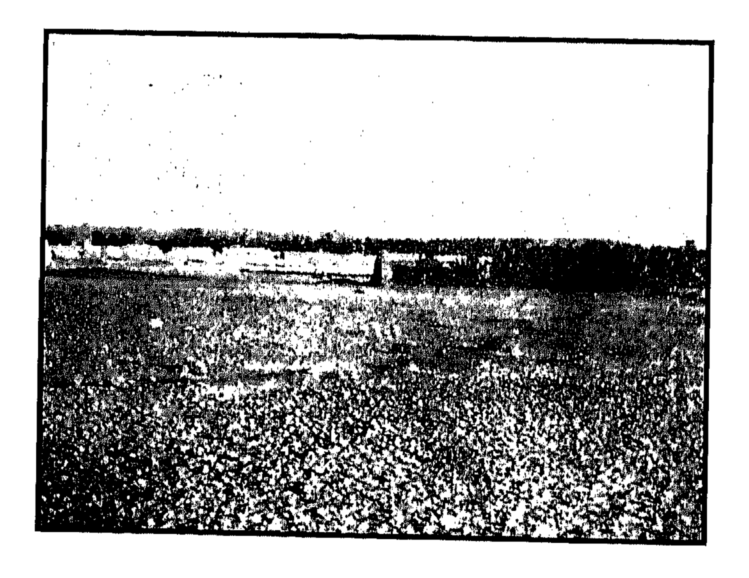
كتبت مذكراتي وأرتبها الآن، وأعيد ترتيب عباراتي، ووجدتني كنت قد كتبت: «منذ غادرت الحجاز أرى واحة لأول مرة .. ليس عندي كلمات تصلح لوصف هذا المشهد».

---

(٢٦) ليست هناك أشجار للتين حيث إن المنطقة التي قطعها ليست معمورة بالزراعة لينتشر فيها التين بهذه الصفة. وفي تعليقه على ذلك ذكر الأخ بدر بن ناصر العميم من (المجمعة) أن ما شاهده الرحالة ليس شجر التين بل شجرة مشابهة لها، وتوجد بكثرة في منطقتنا الممتلئة بالمياه وتسمى الخروع ويطلق عليها البعض «دهن العجم» (الجاسر).

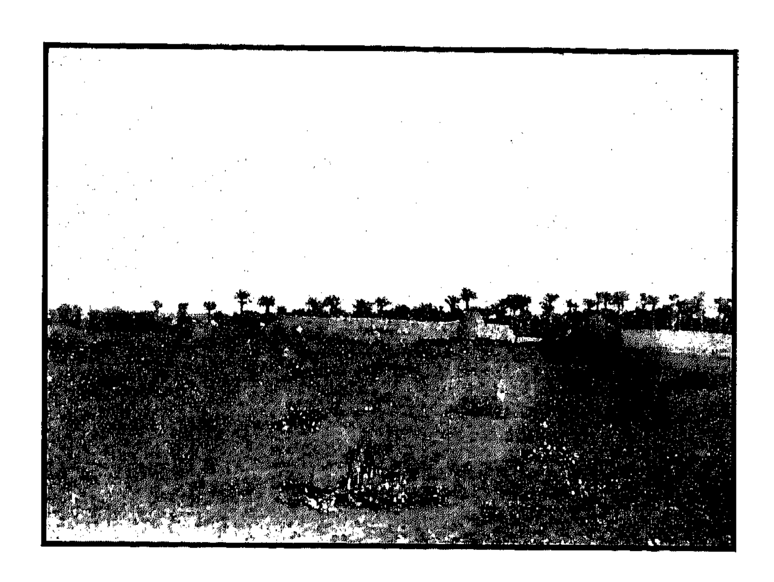


الصورة رقم (٣٧) الكاتب في مراة

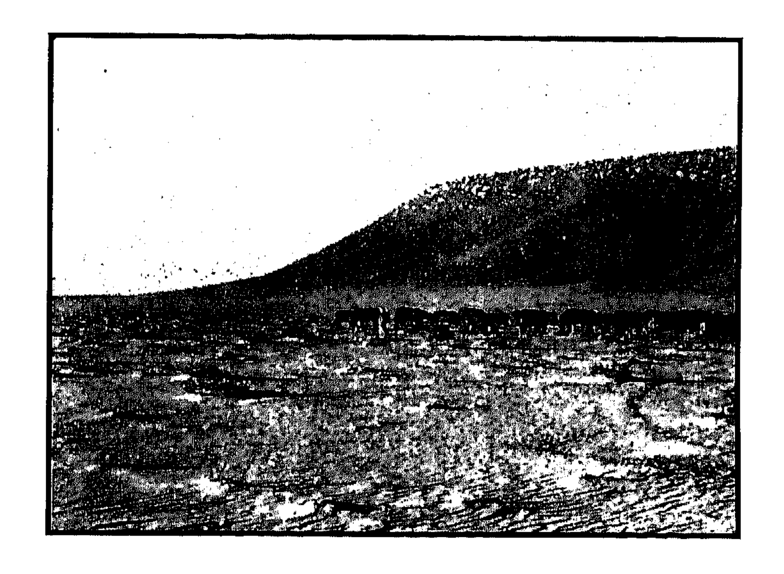


الصورة رقم (٣٨) منظر عام في واحة مراة





الصورة رقم (٣٩) أشجار النخيل في مراة



الصورة رقم (٤٠) تلال مراة٬

ووضعت خطاً تحت هذه العبارة، في الحقيقة كان أعظم شعور بالسعادة قد غمرني وأنا أطالع هذه الطبيعة من أمامي، تلك التي زخرفتها ونقشتها أشجار النخيل، خضرة عمت ناظري وملأت عيني، وكان المهندس ميستوتشي يشعر بما أشعر به أيضًا.

توقفنا على بعد ٤٠٠متر من سور القرية، كان هناك الكثير من العرب الذين يزودون عرباتهم بالوقود، ويحملون ما يحتاجون إليه من ماء، وشاهدنا ثلاث نساء بدويات. وقد ارتدين ملابس تغطيهن من قمة رؤوسهن إلى أخمص أقدامهن، كن يحملن في أيديهن آنية من النحاس بارتفاع ٣٠سنتيمترًا، ويصل قطرها حوالي ٣٠ سنتيمترًا أيضًا، شاهدنا في سفرنا هذا قليلاً جداً من النساء، فتكونت لدينا رغبة حب استطلاع لمشاهدة النساء.

وهناك وجدت هضبة عالية، ربما كان ارتفاعها ستين مترًا، ومن فوقها يمكن مشاهدة القرية كاملة، ورأينا مجموعات من قطعان البقر يرافقها أطفال من البدو، وبينما كان الوقت يقترب من الغروب، كنا على ارتفاع ٦٦٠مترًا من سطح البحر، وطبقاً لما ذكره عبدالسلام فإن عدد سكان القرية أربعة آلاف نسمة، وفي هذا المكان ولد «امرؤ القيس» شاعر الجاهلية، في عصر ما قبل الإسلام.[٢٧] لم أكن أعرف هذه الحقيقة.

امرؤ القيس

ولد امرؤ القيس لأحد شيوخ القبائل، ولكنه عشق الخمر والنساء ففسد، ولهذا غضب عليه أبوه حُجر بن عمرو، وطرده من القبيلة، وهكذا بدأ امرؤ القيس رحيلاً مستمرًا هنا وهناك، وحينما كان في حضرموت سمع بأن أباه قتل، قتلته قبيلة أسد، وفور سماعه الخبر أراد العودة إلى قبيلته بعبور صحراء الربع الخالي، وفي الطريق تعرض له قطاع الطرق، وفقد حارسه الخاص، وطلب امرؤ القيس العون من «كسرى قباذ» وطاف بالجزير العربية، وانطلق شمالاً

(٢٧) هذا خطأ شائع، فمراة لا تنسب إلى امرئ القيس الشاعر، بل تنسب إلى امرئ القيس بن زيد مناة بن تميم، فسكانها وسكان بعض القرى المجاورة لها هم بنو تميم من بني امرئ القيس وغيرهم. (حمد الجاسر).

إلى سورية ومنها إلى روما، وطلب المساعدة من ملك روما يوستيانوس، ويقال: إنه عين أميرًا لمنطقة فلسطين، لكن شخصيته كشاعر لم تؤهله للنجاح في مهمته.[٢٨]

ومن هنا كان عليه أن يعود إلى موطنه نجد، ولكنه في طريق عودته أصابه مرض جلدي فمات في أنقرة.

وقد ولد سنة ١٣٠ قبل الإسلام ومات سنة ٨٠ قبل الإسلام، هكذا كتب المؤرخون العرب، وقد درست وتعلمت الكثير عن شعر امرئ القيس على يد الدكتور طه حسين، ولا أزال أذكر هذه الأشعار الرائعة له.

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل [٢٩]

فهو هنا يتذكر ابنة عمه عنيزة، وقد تأثرت كثيرًا بتعبيراته الرائعة، وهو يتحدث عن محبوبته. وتعبيراته في وصف الطبيعة فاقت كل خيال، وكذلك وصفه الرائع لفرسه، وقد جذبتني أيضا طريقة حياة نبلاء العرب وشيوخ القبائل، وقد عبر امرؤ القيس عن كل هذا في أشعاره بصدق. لا أزال أتذكر حتى الآن أشعاره، وهذه القرية وتلك الطبيعة الخلابة أعادت لذاكرتي، بل جددت ذكرياتي عما عبر عنه امرؤ القيس في أشعاره، ودغدغت أحاسيسي ومشاعري.

وقد اشتهر اسم امرئ القيس بين المؤرخين الرومان أيضًا، وشعره يمكن أن نجده في جميع كتب الأدب إذ لا يخلو كتاب من ذكر اسمه، ولقد عرفت من قبل أين ولد، كنت أدرك أنه ولد في وسط نجد، ولد في واد مملوء بأشجار النخيل، غير أنني لم أكن أعرف هذه الواحة في صحراء

(٢٨) لم يذكر أحد ممن ترجموا لامرئ القيس أنه زار روما عاصمة الدولة الرومانية الغربية وعاصمة إيطاليا الآن، بل ذكر بعضهم أنه ذهب إلى قيصر إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية في القسطنطينية مستنجداً به، ليمده بجيش لمحاربة قبيلة أسد التي قتلت أباه، انظر الأصفهاني، الأغاني، مج٩، ص ص ٩٦-٩٧، وحتى هذه الرواية يقف منها بعض المحققين موقف التردد والشك.

(٢٩) ذكر المؤلف ترجمة الأبيات الأولى من ملعقة امرئ القيس، وهو هنا يشير إلى تلك الأبيات.

النفود.[٣٠] وحين كان صغيرًا، كان والده له سلطة كبيرة في هذه المنطقة.لاشك في هذا، مكان ساحر، ومنظر رائع، الخضرة الجميلة، خضرة المكان كله، وخضرة أشجار النخيل، والهضبة الصخرية هناك تبدو كأنها مكان سري، والنساء اللاتي يتمايلن ويتبخترن في مشيهن. كل هذا جذب امرأ القيس، وحرك مشاعره، فاندفع يعبر عن أحاسيسه بقول الشعر.

ويذكر في الكتب أن امرأ القيس كان آخر ملك في هذه المنطقة (بعد وفاة والده كان عليه أن يعود ليتولى الحكم مكان أبيه). ياله من مكان!! هذا المكان مسقط رأس امرئ القيس، مكان رائع.

صلاة المغرب على الهضبة الصخرية

الرابعة وعشر دقائق

تحركنا إلى جهة الشرق، وبدا كأننا نرى القرية التي بنيت من الطين، وتحول سطح الجبل إلى نوع آخر من الصخور، تختلف عن الصخور التي شاهدناها من قبل. ورحنا نتجه شرقًا فشرقًا، وفوق قمة الجبل كان لون الصخور أبيض كما لو كانت الثلوج تغطيه، لكنها الصخور البيضاء. كانت الشمس تميل إلى الغروب، وشاهدنا كتل الصخور التي غسلتها المياه، كما شاهدنا أيضًا أشجار «الطلح» و«السلم»، وبينما كنا ننحدر إلى أسفل الجبل، طلب منا الوزير الياباني أن نرى المنظر الخلفي من زجاج السيارة. كانت الشمس تغرب وتختفي في حضن الجبال، وتحول الأفق بأكمله إلى حمرة قانية، قانية جداً كدم غزال أصيل، لم يحدث أن رأينا مثل هذا المنظر من قبل. شعرنا بجمال الشمس والاحترام الشديد لهذه الطبيعة، ثم اختفت الشمس تماما وحل الظلام.

ارتفع الطريق من أمامنا مما أثر في سير السيارة، وعلى يميننا كان الجبل، وعلى يسارنا كنا

(٣٠) النفود ليس سوى جزء يسير من منطقة نجد ذات الواحات الكثيرة.(حمد الجاسر).



نشاهد من بعيد قطيعًا من الخراف، وبعد ذلك وجدنا أنفسنا نمضي في طريق ضيق جدّاً، يحتاج من السائق إلى انتباه شديد، فمشى بسرعة ١٠ أكيال في الساعة. وبدأ الطريق يهبط بنا وينحدر، وجعلني هذا أتذكر حين كنت أقود السيارة في القاهرة عند الأهرامات، في الليالي المقمرة في الطريق المنحدر هناك، تذكرت هذا وأنا هنا في وسط نجد.

ظهر أمامنا وادي حنيفة، وأوقف السائق السيارة فجأة، ولاحظنا على وجهه علامات الصرامة والجدّ، قال: انتظروا .. وابتعد عنا .. ثم قام بقضاء حاجته بعد أن جلس على الأرض.

وقمنا نحن أيضًا بالشيء نفسه، ولكننا لم نجلس على الأرض، بل قمنا بقضاء الحاجة واقفين. وبينما كنا نقضي حاجتنا كان السائق ينظر إلينا بتعجب شديد، لأن «قضاء الحاجة وقوفًا» كان عجيبًا جدّاً بالنسبة له، وغريباً عليه أيضًا. ثم قام السائق فتوضأ[٣١] (تيمم بالتراب)، وبدأ الصلاة، وهذه أول مرة رأيناه يصلي منذ أن خرجنا من جدة!! قال لنا: إن الجو المحيط بنا هنا يجعله يصلي الآن، ورأينا الهلال، كان هلال اليوم الثامن أو التاسع.[٣٢] كنا كما لو نحلم ونحن نشاهد هذا المنظر الطبيعي الرائع، الذي لا يمكن وصفه، وكان النسيم عليلاً والهدوء يخيم على المكان.

والسائق (شاكر) مولود في مكة، ويجري الدم البدوي في عروقه، وهذا الجو بالنسبة له يعني الكثير، فقد كان سعيدًا فرحًا هاشًا باشًا، وهو يمر بهذه المنطقة، والهلال فوق الجبال جعله ينتبه إلى أداء الصلاة، وكان لديّ شعور وإحساس بالرغبة في أداء الصلاة مثل شاكر، فقد كنت أدرس في جامعة الأزهر بالقاهرة، ولكن أمام الوزير، وأمام المهندس ميتسوتشي شعرت بالخجل،[٣٣] فتوقفت، لكنني بدأت أغني بصوت عال مع المهندس ميتسوتشي أغنية هي الآن

---

(٣١) هكذا جاء في الأصل

(٣٢) من صفر عام ١٣٥٨هـ، بداية السنة الهجرية ١٣٥٨هـ توافق ٢١ فبراير ١٩٣٩م.

(٣٣) ربماكان الكاتب مسلماً، لأن الأزهر يقبل الطلاب المسلمين فقط!! وهذا يحتاج إلى تحقيق.

مشهورة جدّاً في اليابان، بعنوان «الغروب في الصحراء».

كان يمكننا أن نرى الجبل، الذي بدت صخوره من الحجر الجيري، وهيئته مثل جبل فوجي،[٣٤] لهذا أطلقنا على هذا الجبل «جبل فوجي العربي»؛ ربما كان ارتفاعه ٣٠٠ متر فقط، لكن شكله كان غريبا جدّاً، حين كنا على الحدود بين الحجاز ونجد أمكننا رؤية جبال الجرانيت، لكن - الآن وبالقرب من الرياض وعلى بعد حوالي مائة كيل في الوادي - يمكننا أن نرى هضابًا تتكون من الأحجار الجيرية، ياللفرق بين الجرانيت والحجر الجيري!!

وذات مرة منذ مائة وخمسين سنة استولى أفراد الأسرة المالكة المصرية - - طوسون بيه وإبراهيم باشا - على هذه المنطقة، ولكن بعد عدة سنوات كان عليهم أن يعودوا أدراجهم ثانية.

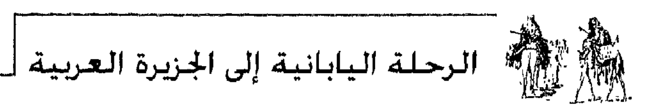
أخذنا نتحرك على طريقٍ هو عبارة عن رمال بيضاء، كانت أنوار السيارة الأمامية مضاءة، وكانت تسير على هذا الطريق السهل المنبسط، بسرعة ٩٠ كيلاً في الساعة.

وواجهنا سيارة قادمة أمامنا، كانت هذه أول مرة نشاهد سيارة في مواجهتنا منذ غادرنا الحجاز، ولهذا شعرنا أننا وصلنا إلى نجد، غير أننا سرنا أكثر من ساعة على هذه الوتيرة، حتى وصلنا إلى القرية التي بنيت من الطين، فهدأ السائق من سرعة السيارة.

نقص الوقود عند العرب!!!

كان يمكن أن نشاهد أمامنا أضواءً صغيرة، ربما يوجد هناك أناس. فأوقفنا السيارة ونزلنا منها، وذهب السائق تجاههم، كانت هناك عربة نقل (شاحنة) مع رجلين، وبعد أن عاد سألناه: ما الخبر؟ قال: هؤلاء يعملون في الحكومة، وهم ذاهبون من الرياض إلى مكة، إلا أن نقص وقود سياراتهم جعلهم ينتظرون سيارة تمدهم إن أمكن بالوقود.

(٣٤) يحتل جبل فوجي مكانة مقدسة في أذهان اليابانيين، وبخاصة الجبل القديم.



ورحت أفكر .. مائة كيل هي المسافة من هنا إلى الرياض، ولم يعد مع هؤلاء وقود للسيارة. ماذا بعد ذلك؟ سوف يعبرون صحراء النفود، وسوف يمضون في مناطق أخرى صعبة، كيف سيتصرفون!؟

تعجبت .. ألم يفكروا في هذا الأمر؟ ربما يظنون أن أحدًا سيقدم لهم المساعدة كلما احتاجوا إلى ذلك، وفي كل مرج ينفد منهم الوقود، لابد أنهم مهملون لا يعملون حسابًا لمثل هذا الطريق .. ألم يفكروا في كل هذا. !؟

كان هذا رأي السائق أيضًا الذي أخبرهم أنه لايمكن أن يعطيهم وقودًا لسيارتهم، وذكر لهم أن من ورائه سيارة قادمة ربما تزودهم بالوقود، وأن عليهم الانتظار حتى تأتي هذه السيارة.

ولكن - فيما بعد وفي الرياض - أخبرنا بأن عبدالسلام أعطاهم صفيحة من الوقود حتى يتمكنوا من متابعة رحلتهم!!

الظلمة ومسيلمة

ومضينا في طريقنا .. أصبح الهواء محمَّلاً بالرطوبة إلى حد ما، وأخذ الطريق يضيق، وامتلأ بالمطبات، فقلّت سرعة السيارة عن ذي قبل، ثم تشعب الطريق إلى عدة طرق، اضطرب السائق في البداية فلم يكن يدري أي طريق يسلك، وحاول أن يسلك أحدها، فكان مصادفة هو الطريق الصحيح، و على جانبي هذا الطريق وبمحاذاته رأينا نبات القمح الأخضر، كان ارتفاعه حوالي ٣٠ سنتيمتراً، أخذت عودًا من أعواده وعضضته فشممت فيه رائحة القمح الحقيقي، وذقت فيه طعم القمح الحقيقي، وبعد ذلك قال لنا السائق شيئًا عجيبًا، قال: ربما ضللنا الطريق، هذا الطريق يؤدي إلى ضرما، وخشينا أن نكون قد ضللنا الطريق فرحنا نطالع الخرائط، ثم اكتشفت أنني أخطأت، وأسأت فهم ماقاله. فقد قال: (ضرما) وظننته قال: إنه فقد الطريق نتيجة (الظلمة) أي الظلام.

ولم يكن في مقدورنا أن نفعل شيئًا ونحن نظن أننا فقدنا الطريق، فجلسنا على جانب الطريق ننتظر، ونحاول اكتشاف الطريق الصحيح، حتى جاءت إلينا سيارة عرفنا أنها سيارة عبدالسلام الذي رجع يبحث عنا، وقال: هنا «العيينة» وهي بلدة مشهورة تعرف بأنها بلدة مسيلمة الكذاب، [٣٥] وسمعنا عن قصة مسيلمة، وأنا أعرفها لأنني درست التاريخ أيضًا في جامعة القاهرة.

قرأت عن مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة، وأقلق الناس في نجد واليمامة، والعيينة مشهورة أيضًا بمحمد بن عبدالوهاب، إمام الدعوة الوهابية، [٣٦] وسكانها الآن حوالي ألف نسمة، وكانت هذه البلدة منذ مائة سنة مركزًا سياسيّاً وثقافيّاً لنجد، وقد أعيد بناؤها مرة بعد مرة؛لأن الفيضانات كانت تغرق البيوت، كلما جاء موسمها، ومع بداية القرن التاسع عشر استولى الجيش المصري على هذه المنطقة، لكني أشعر الآن كما لو أن هذا الشي لم يحدث، فهذه قرية لاتزال بعيدة عن كل المؤثرات، وهي تبدو فقيرة جدّاً، وكأن أحدًا لم يمر بها.

رجع السائق وأخبرنا بأننا نمضي في الطريق الصحيح، فتابعنا رحلتنا ثانية، وشاهدنا مجرى مائيّاً صغيرًا، لكن هذه المياه كانت غير عادية، لم أر مثلها منذ تركنا «الجعّرانة» وشاهدنا بيوتًا مبنية من الطين، وساقية تسحب الماء من البئر، كان الهواء مشبعًا بالرطوبة إلى حد ما، وباردًا مما يشعرنا بأننا في جو الحضر.

(٣٥) لقد وهم الرحالة في ذلك، ولعله راجع إلى أن لديه تصوراً أن وادي حنيفة هو بلاد مسيلمة، مع أن الوادي يحوي قرى كثيرة، ومسيلمة، على كل حال كان من قرية في أعلى الوادي، تقع غرب بلدة العيينة كانت تدعى (الهدار) ولعل موقعها- كما يقول جمد الجاسر- فيما كان يعرف الآن باسم (الهديدير) أحد روافد الوادي. أما بلدة العيينة فهي قرية أخرى. يقول الجاسر.. وقد ذهب مسيلمة وجهلت بلدته، وإن كانت في الوادي ومن الخطأ أن تنسب هذه القرية لمسيلمة التي لا صلة لسكانها به، فقد مضى هو وسكان قريته بخيرهم وشرهم..

(٣٦) انظر التعليق في رقم(٢) ص٢٢ من هذا الكتاب.



قرية الجُبَيْلة

بينما النوم يداعب جفوني بسبب الهواء العليل، إذا بالسائق يصيح فجأة: الجبيلة الجبيلة!! وسارت السيارة بعد ذلك ببطء، فرأينا على اليسار حائط قلعة شيد من الطين، وعلى اليمين هضبة صغيرة نبتت فوقها أشجار الطلح، وتناهى إلى سمعى صوت غريب، صوت يعلو وينخفض، صوت حاد وهادئ في وقت واحد، ظننت أنه صوت قادم من مذياع، ربما من إذاعة مصر أو فلسطين، وتأهبت لسماع أغنية ما، لكنني لم أسمع شيئًا سوى ذلك الصوت العجيب، فسألت السائق: ماهذا؟ هل هذا صوت مذياع؟ فضحك وضحك.

وأعدت عليه السؤال ثانية، ماهذا الصوت؟ فضحك ثانية، وقال: هذه «سانية».

واكتشفت أن هذا صوت السانية التي تمتد حبالها لإخراج الماء من البئر، كان هذا الصوت الموسيقي شبيها بالصوت الذي يصدر عن «آلة الكمان» تمامًا .. مثل هذا الصوت الموسيقي كان يتناهى إلى أسماعنا في الجبيلة، لكننا لم نر مصدره من حولنا، لم نكن نرى أي نور أو ضوء أو نار.

نزلنا من السيارة، ورحنا نستنشق الهواء الذي كان ممزوجا برائحة التراب، وكانت الساعة آنذاك السابعة والنصف ليلاً.

حين كنا نشاهد أشجار الطلح كان ينتابني شعور بالخوف أكثر من الشعور بجمال هذه الأشجار، لأنه لم يكن هناك أي شيء آخر، وحينما كان مرافقونا العرب يضربون الخيام، ويعدون الطعام كنا نستمع إلى «مذياع» السيارة.

وبينما كانت أعيننا تتجه إلى حائط القلعة، شاهدنا سلالم يصعد عليها ثلاثة رجال، ربما كانوا عائدين إلى بيوتهم، كان الجميع هنا مشغولاً بشأنه، والطباخ راح يذبح شاة اشتراها من «خف»، ذبحها بسكين كبيرة، ثم علقها على شجرة، وأخذ يقطعها قطعًا صغيرة، استغرق ذلك

منه أكثر من ساعة، وكنا في غاية الجوع.

كنت والسائق وعبدالسلام بلا عمل ولاشغل، فأمضينا الوقت نسمع «المذياع» ربما كانت إذاعة القدس، وكنت قد تعودت على سماع «المذياع» في مصر، وكنت أسمع بشوق أغاني محمد عبدالوهاب، الذي كان يغني الآن أغنية «الوردة البيضاء» .هذه الأغنية مناسبة تماماً لهذا الجو الذي نعيش فيه، ولهذا المنظر من حولنا.

كانت الجبيلة - مثلها مثل الدرعية والعيينة والرياض، بلدة نشطة، ولكن لم أفكر أبدًا في أنني أستطيع أن أسمع أغنية لعبدالوهاب في مثل هذا المكان، كان هذا البث الإذاعي من القدس، وبعد الأغنية جاءت الأخبار من وكالة رويتر باللغة العربية، وكانت عن الموقف السياسي في مصر، والموقف السياسي في أوربا. ذات مرة كنت أستمع إلى إذاعة اليابان وأنا في القاهرة، ولم أكن ساعتئذ أشعر بأن في هذا الأمر غرابة، ولكنني الآن حين أستمع إلى إذاعة القدس ينتابني شعور غريب، ويمكنني الآن أن أفهم ما حدث منذ عشر سنوات من العلماء في مكة، العلماء الذين استمعوا إلى إذاعة مصر لأول مرة، فقاموا بتحطيم أجهزة الراديو، لأنهم ظنوا بأن ما يصدر عنه هو صوت الشيطان.[٣٧] الآن أفهم شعورهم جيّدًا؛ لأنني شعرت هنا بشعور غريب ينتابني، كانت خيمتنا جاهزة، فدلفت إليها ورحت أكتب مذكراتي، في حين كان المهندس غارقًا في فحص الأحجار التي جمعها اليوم، وكان الوزير يتجول حول الخيمة.

كنا قلقين وخائفين من أن يلدغنا العقرب. ولهذا وضعنا بودرة البراغيث والقمل في كل مكان حتى داخل أحذيتنا حتى نبعد العقرب عنا، وفجأة قدم الوزير، وقال: انظروا .. انظروا إلى هذا الشيء العجيب، شيء مثل الحجر يتحرك، وحين شاهدناه كان طوله خمسة سنتيميترات، مخلوق أسود مدور يتحرك على الأرض واكتشفنا أن مانراه نملة كبيرة، تحمل قطعة من روث الغنم.[٣٨] اعتقدنا نحن أنه حجر يتحرك على الأرض!!

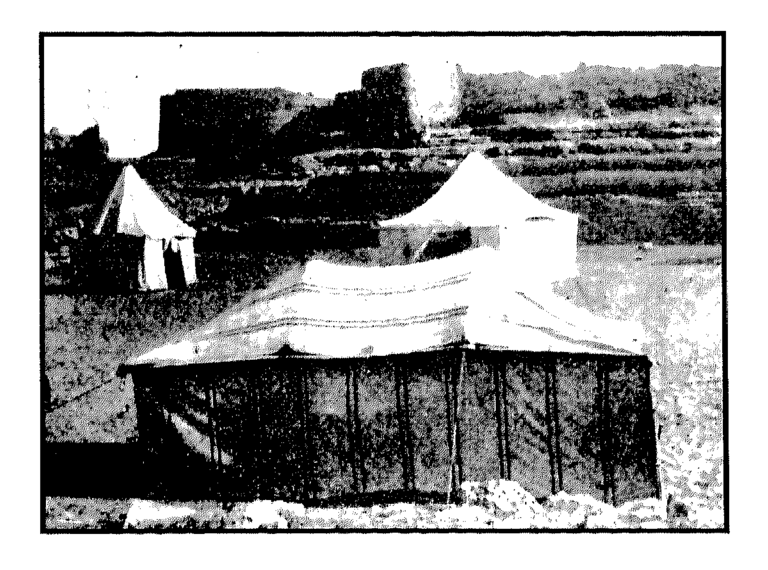
---

(٣٧) انتشر المذياع في مكة وفي مدن الجزيرة قبل ذلك الوقت بحيث أصبح مألوفاً.

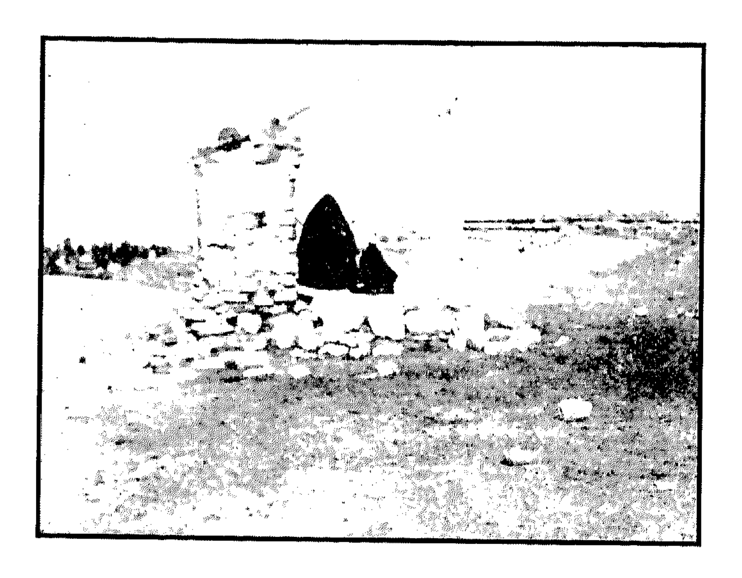
(٣٨) ما رآه الرحالة ليس نملة بل رأى حشرة (الجُعَل).



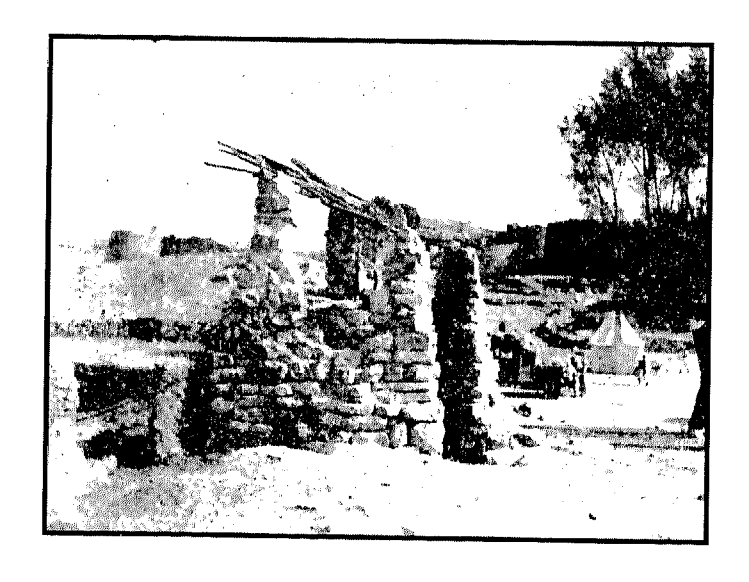
الصورة رقم (٤١) الجبيلة



الصورة رقم (٤٢) خيامنا في الجبيلة



الصورة رقم (٤٣) إمرأة تقف بجوار السانية في الجبيلة



الصورة رقم (٤٤) أطلال سانية في الجبيلة

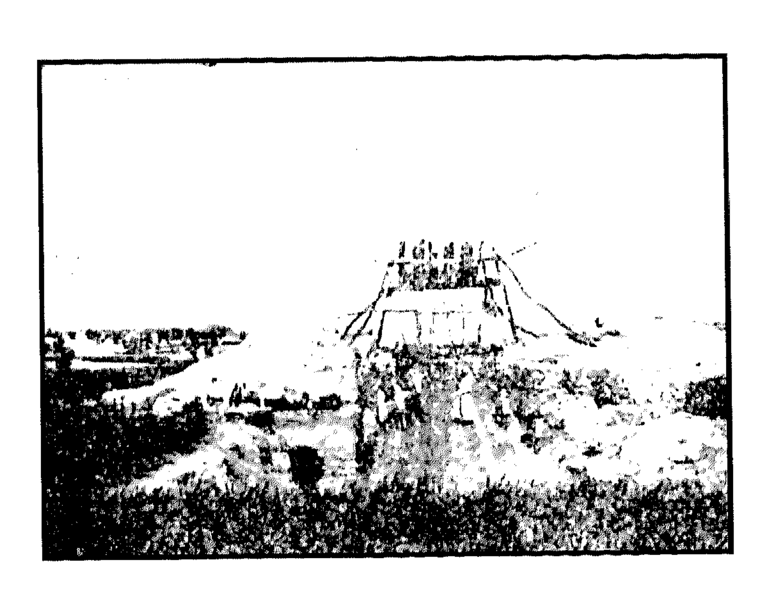


وتذكرت ماقرأت عن قصة النبي محمد صلى الله عليه وسلم والحجر.

لكن ماأمامي كان مجرد حشرة!!

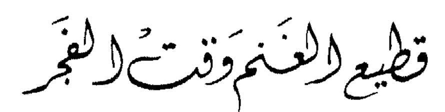
تناولنا طعام العشاء المكون من لحم الغنم المقطع قطعًا صغيرة، ووجدنا صعوبة في مضغه. وبعد العشاء أوينا إلى فراشنا للنوم، ونحن على أمل الاتجاه غدًا صباحًا إلى مدينة الرياض، وكانت درجة الحرارة عشر درجات مئوية، وكنا على ارتفاع ٦٤٥مترًا فوق سطح البحر.

وحين نزلنا في هذا المكان، نكون قد اجتزنا مايقرب من مائتين وخمسين كيلاً.



الصورة رقم (٤٥) سانية في الجبيلة

اليوم الخامس



الحادي والثلاثون من مارس

الساعة السادسة صباحاً

استيقظت على صوت «السانية» الصوت مستمر لاينقطع، وأذكر أنني سمعت صوت السانية في حوالي الساعة الرابعة والنصف فجرًا - والظلمة لا تزال تغطي الكون - فنهضت، وشاهدت من نوافذ (فتحات) الخيمة الضيقة قطيع غنم يقوده أحد الرعاة، كان بعضها يصدر صوت «مياء مياء» لكنها - بصورة عامة- كانت تسير بهدوء شديد، وكانت الأغنام تفضل أن تمر بجوار خيمتنا، وعلى حافة الطريق، مما جعل الخيمة تهتز، ورحت أراقب القطيع فترة.

استيقظ الوزير بعد وقت، وقدم إلي، وقال: «لقد تعجبت من هذا الصوت...»

انقشع الظلام تدريجيّاً وأشرقت الشمس.

كان الهواء في الجو كالمعتاد، غير أنني شعرت بالرطوبة تتزايد. كما أمكن مشاهدة عيدان القمح، كانت رفيعة جدّاً بصورة تلفت النظر، ربما لايهتم بها أحد!! كنت أسمع صوت السانية طوال الليل، وهذا يعني أن العمل بالزراعة يتم طوال الليل بدلاً من النهار.

ورحت التقط صورًا للمنطقة المحيطة بخيمتنا. ثم تناولنا طعام الإفطار، الذي كان ألذ طعام إفطار تناولته طوال الرحلة. لماذا؟ لا أدري .. كان مكونًا من الجبن، والزبدة، والمربى، والخبز

العربي، وفاكهة معلبة، وبرتقال، وتفاح طازجين، بالإضافة إلى الشاي وحليب الماعز والبيض المقلي، كان لون البيض أصفر فاقعًا، مما يدل على أنه طازج جدّاً، ولكنهم استخدموا «السمن» في قليه، فكانت رائحته غير معتادة لي، وأضيف للبيض الملح الصخري مما جعل الرائحة تتلاشى، فكان البيض لذيذًا حقّاً.

ربما كان سبب هذا الطعام الكثير أن اليوم هو آخر يوم في رحلتنا على الطريق، وغدًا سنصل إلى الرياض، فاستخدموا كل المخزون من الطعام لديهم.

كان عليّ بعد برنامج الرياض أن اتجه مع المهندس ميتسوتشي إلى منطقة الخليج، الأحساء والبحرين، بينما كان على الوزير أن يرجع إلى جدة وحده، ولهذا شعرت أنه قد يواجه كل واحد منا متاعب مختلفة، وعلى كل حال سنصل إلى الرياض سريعًا، ولهذا كنا سعداء، وشعرنا بلذة الطعام.

"السانية" الآلة العربية

كان لدينا وقت كاف بعد تناول الطعام، فخرجنا نتجول حول الخيمة، فرأينا «السانية» التي بدت لنا كأنها مقصلة عرضها حوالي ٩٠ سنتميترًا وارتفاعها حوالي ثلاثة أمتار. وتوجد حفرة يرتفع منها عمود، وسطح مصنوع من آلواح الخشب، وتحت هذا السطح بئر قطره متر ونصف المتر، وعمقه عشرون مترًا، وتوجد خمسة غروب، يبدو أنها مصنوعة من جلد الغنم، لسحب الماء إلى أعلى البئر.

ورأينا خمسة حمير وبعض الرجال يلبسون ملابس تشبه ملابس الفلاحين في مصر، ومعهم طفل، كان الطفل يركب على الحمار، وعلى ظهر الحمار حبل سميك يتفرع إلى اثنين عند رأس الحمار، واحد يتجه إلى أعلى البئر، [٣٩] والآخر عند الجزء الأسفل من البئر. والحبل

(٣٩) هو المعروف بالرّشا [illegible] على أرشية. والكلمة من العامي الفصيح

العلوي يذهب إلى الغرب، الذي حمل الماء من البئر. والحبل السفلي يتجه إلى الغرب،[٤٠] كان الحبل السفلي أقصر من الحبل العلوي بنحو ثلاثة أمتار، وكان الحمار حين يقترب من البئر ينزل الغرب في البئر، وحين يبتعد عنه يخرج الغرب وقد امتلأ من ماء البئر، وهكذا يتم إخراج الماء من البئر عن طريق هذه الغروب المصنوعة من جلد الغنم. وتستمر هذه الحركة ذهابًا وإيابًا، وهكذا اعتاد الحمار هذا العمل.

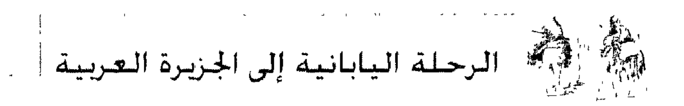
وأخذت أعد للحمار: واحد .. اثنان .. ثلاثة.. إلى العدد العشرين. وحين يود الطفل إراحة الحمار يضربه بالعصا فيتوقف عن الحركة.

غمرني شعور بالتعاطف مع الحمير، لأن عليها أن تعمل طوال الليل. وهي حيوانات تمتاز بالصبر، أذكر أنني رأيت في مصر ساقية بدائية. وهذه السانية مثلها، لكنها لاتشبهها في جميع الوجوه؛ فالساقية في مصر تدور فيها بقرة عصبوا عينيها. فتظل تدور حول البئر، ويتحرك الماء في دواليب من الصاج. لكنهم هنا يستخدمون الحمير، والطريقة مختلفة تمامًا، هذه الطريقة معقدة أكثر من الساقية، ورحت أحسب: الحمار يذهب تجاه البئر، ويعود في دقيقتين، ويخرج من الماء حوالي عشرة ليترات، وإذا استمر هكذا مدة ساعة فإنه يخرج ٣٠٠ لتر من الماء.

وهي كمية كبيرة من الماء يخرجها الحمار في ساعة. والبقرة في مصر أسعد حالاً من الحمار هنا، فهي معصوبة العينين، ولذلك تمضي وكأنها تسير في طريق واحد، كما أنها تعمل في النهار فقط، وليس في الليل، فتكون لديها فرصة للراحة، وعلى أية حال هذه هي الطريقة البدائية لاستخدام الآلة لدى أهالي نجد، أخذنا نصور هذه السانية قبل أن ننطلق في المرحلة الأخيرة من الرحلة على الطريق المؤدي إلى الرياض.

---

(٤٠) هو المعروف بالسريح، ويُعدّ من جلود الإبل، واللفظة من العامي الفصيح.



الساعة السابعة والنصف صباحاً

بدأنا نتحرك، وبعد قليل وصلنا خارج الجبيلة، كان الطريق سهلاً منبسطًا، وكانت هناك لوحات إرشادية بعد كل مسافة، تشير إلى اسم المكان، وانطلقت السيارة بسرعة ٨٠ كيلاً في الساعة، وشعرت أننا اقتربنا من الرياض، وقبل التاسعة – وعلى بعد حوالي ثلاثة آكيال – شاهدنا واحة خضراء، وصاح السائق:

الرياض .. الرياض.

تراءى لنا من بعد منظر قلعة ثم بان لنا سورها، ونوافذها، والمباني العربية الأصيلة في الصحراء، شعرت أن القلعة ضخمة، قلعة الشمسية حيث يقيم الملك، كان مظهرها بسيطًا جدّاً، وسرنا متجهين إلى مركز الدعوة الوهابية.. (٤١) إلى الرياض.

كان الطريق الذي نمضي فيه يبدو كأنه عُبِّد منذ شهرين أو ثلاثة أشهر، شعرنا بملامح الحضارة على هذا الطريق، وواجهنا سور قلعة صغيرة، محاطة بأشجار

النخيل، واتجهنا جهة الجنوب الغربي، و فجأة انقطع الطريق.

ووجدنا طريقا ضيقًا جدّاً يسمح بمرور سيارة واحدة، وتعجبت: هل نحن في الرياض أم لا ؟ هناك بدو يسوقون الأغنام، وقرويون يلبسون المشالح، ونساء غطين أجسامهن تماما بالملابس السوداء. وأخذ الجميع ينظر إلى سيارتنا نظرات حب استطلاع وفضول، وحُفّ الطريقُ بالأشجار التي شدت عليها أسلاك، ربما كانت أسلاك كهرباء أو أسلاك هاتف.

---

(٤١) أورد الرحالة كلمة « الوهابية» متأثرا بما قرأه، وهذا الوصف للدعوة الإصلاحية التي قادها الشيخ محمد بن عبدالوهاب غير صحيح، لأنها ليست دعوة أو مذهباً جديداً، وإنما هي دعوة سلفية تستند إلى القرآن الكريم والسنة النبوية.

الساعة التاسعة وعشرون دقيقة

تجهنا إلى الناحية الجنوبية الغربية، على بعد عشرة أكيال من قصر الرياض، وصعدنا على رتفع أمكننا أن نشاهد منه وادي حنيفة، لكننا لم نر فيه ماءً على الإطلاق، وأمكننا أن شاهد أيضاً خياماً مقامة للمعسكرات، وليس للسكن، أوقفنا السيارة ونزلنا نشاهد تلك لعلامة التي كتب عليها Art no 43 st Heavy dut Spudder مصنوعة في أمريكا، هذا يعني ن شركة أمريكية تعمل هنا.



الصورة رقم (٤٦) علامة طريق شمال غربي الرياض



الصورة رقم (٤٧) آلة حفر بئر الماء أمام قصر البديعة

كان سور القصر (القلعة) يغطي مساحة كبيرة، ومحاطاً بأشجار النخيل. حين كنت في القاهرة ذهبت مرة إلى مطار الماظة،[٤٢] وفي الطريق شاهدت قصرًا في الصحراء، وتذكرت حكايات ألف ليلة وليلة، لكنني أشعر هنا فعلاً كأنني أعيش في وسط هذه الحكايات، حكايات ألف ليلة وليلة؛ لأن الجو المحيط بي هنا، والهدوء الشديد، وقسوة الصحراء توحي بذلك تماماً، بالإضافة إلى ملامح منطقة نجد الشهيرة في الأدب العربي، فهذا كله يختلف عن الجو العام في القاهرة، وهذا ما جعلني أشعر كأنني أعيش فعلاً حكايات ألف ليلة وليلة..

(٤٢) الماظة من أحياء مصر الجديدة لمدينة القاهرة، وبالماظة يوجد مطار عسكري.

قصر البديعة

خيم الصمت علينا جميعًا، لم ينطق أحدنا بحرف. ثم سرنا بمحاذاة سور القصر فوجدنا «بناء» مشيدًا من الطين، عرفنا فيما بعد أنه مرآب سيارات، وبعد أن سرنا مسافة عشرين مترًا تقريبًا أوقفنا السيارة أمام البوابة، هذا هو قصر البديعة، كان مصممًا على الطريقة العربية. وسنبقى هنا عشرة أيام من الآن. قبل سنة [٤٣] حضر إلى هذا القصر أحد لوردات الأسرة المالكة البريطانية مع زوجته، ونزلا فيه!!

ترجلنا من السيارة، فوجدنا عند البوابة ثمانية من رجال الحرس مع بنادقهم الطويلة، وحين اقتربنا منهم، قال أحدهم – وأظنه قائدهم: اضرب .. فبدأوا في إطلاق الأعيرة النارية تحية لنا .. ورفعنا لهم أيدينا بالتحية، كانوا ينظرون إلينا ووجوههم كلها تنبئ عن الصرامة والجد والمهابة، ويبدون في منتهى القوة، لكن قاماتهم تميل إلى القصر، كانت تقدر بحوالي ١٦٠ سنتيمترًا، فقاماتهم تبدو أقصر من قامتي. وكان لهم شوارب،ولايمكن معرفة أعمارهم، ويضعون على رؤوسهم الغترة والعقال. وكان لون الغترة شديد الخضرة، ويحملون البنادق ويلبسون «المعطف » مع السروال (البنطلون)، ويتمنطقون بأحزمة في وسطهم. دخلنا إلى الحديقة، فصاح قائدهم: «استراحة»، ثم صعدنا إلى الطابق العلوي.

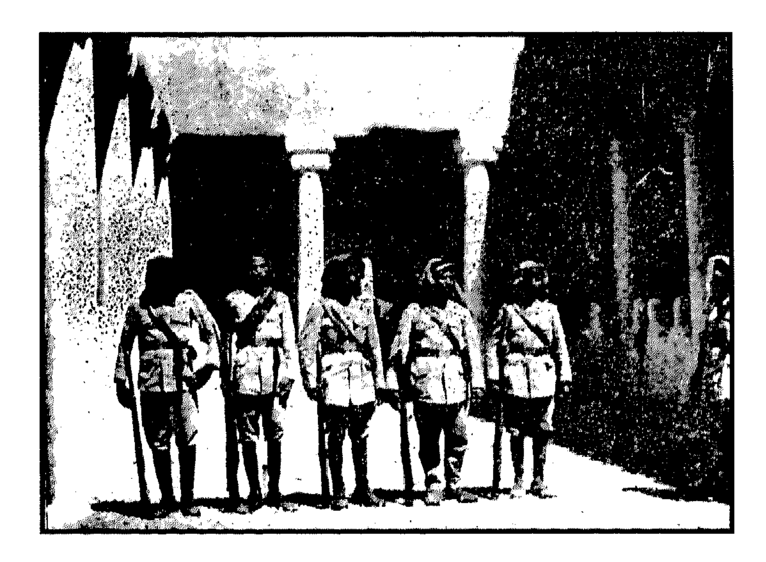
---

(٤٣) سنة ١٣٥٧هـ-١٩٣٨م.





لصورة رقم (٤٨) منظر وادي حنيفة



الصورة رقم (٤٩) الحرس في قصر البديعة

يتكون المبنى من طابقين، وهو مشيد على طريقة المعمار العربي، شكل مربع[٤٤] - مثل شكل الكعبة، وشكل جامعة الأزهر، وشكل قصر الحمراء في غرناطة في أسبانيا - لايختلف عن تصميم الفن المعماري العربي الإسلامي، والسلالم ضيقة تسمح لرجلين فقط بالصعود معًا، وهي مبنية بالطين، ويوجد مايشبه السجادة على السلالم، يبدو أنها مصنوعة في اليابان، وفي آخر السلالم وضعت سجادة يبدو أنها مصنوعة في مصر. وحتى لاتتسخ السجادة وضعوا «حصيرة» لمسح الأحذية.

في الطابق الثاني المشيد من الطين قادونا إلى غرفة الضيوف، وهي غرفة واسعة مساحتها حوالي ٣٠ تتامي(التتامي ٩٠ X١٨٠سنتيمترًا)[٤٥]، شممنا رائحة الطين، وكان هذا أول ماشعرنا به.

وفي الغرفة توجد حصيرة وضعت فوقها سجادة، وكان السقف مطليّاً باللون الأبيض، وكذلك كانت جدران الغرفة أيضًا، وعلى السقف نجوم وهلال وغيرها من الأشكال الهندسية.

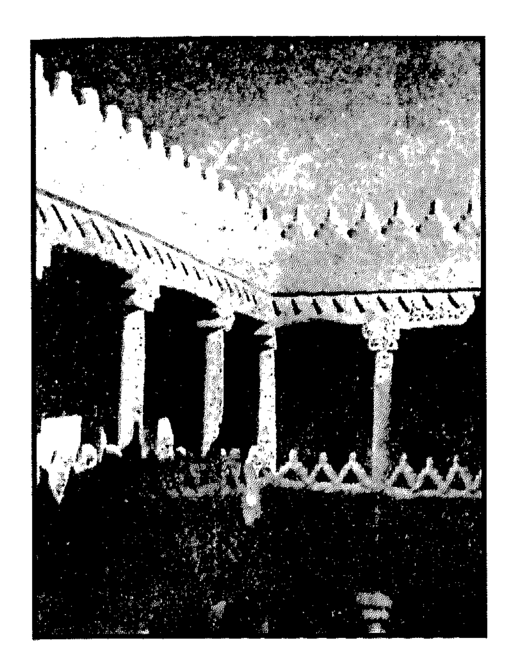
وكانت « عروق » الخشب ظاهرة من السقف، وكانت مطلية بخطوط حمراء وسوداء على شكل تموجات، وعلى الحائط كانت هناك زخرفة على الطريقة العربية، أشكال هندسية ومنمنمات.

كان للغرفة سبع نوافذ أو ثمان، وحجم كل منها ٦٠ X٣٠ سنتيمترًا، وفي كل نافذة «شيش» من الخشب، لايمكن فتحه مع قضبان حديدية، وهناك مساحة في أعلى النافذة مغطاة بالزجاج، تسمح لضوء الشمس بالمرور إلى الغرفة. ومن خلال هذه النافذة تمكنا من معرفة سمك الجدار، كان ثلاثين سنتمترًا، وهذا السمك كافٍ لمنع دخول الحرارة إلى الغرفة.

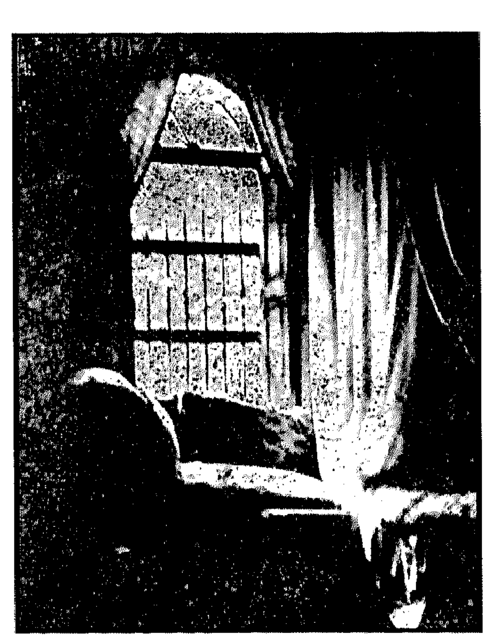
---

(٤٤) لم يكن شكل القصر مربعا.

(٤٥) هذه مساحة التتامي قديماً، وأما مساحة التتامي الحديث أقل من ذلك.



الصورة رقم (٥٠) جانب من قصر البديعة



الصورة رقم (٥١) غرفة الكاتب في قصر البديعة

وكانت هناك ستائر بدا واضحًا أنها مصنوعة في اليابان. وشاهدنا خطّاً كهربائيّاً في السقف، لكن هناك «مصباح» كهرباء، ربما هناك خطأ ما، وبجوار الحائط وضعت أريكة وكرسي من الخيزران وبجوارهما منضدة.

وفي وسط الغرفة وضعت طاولة صغيرة، ورأينا فوقها محبرةً وقلمًا وسكينًا، وكتب على المحبرة «صنع في اليابان» وهي من نوع (Pairolink)، ظننا بدءاً أنهم وضعوا أمامنا عمدًا أشياء مكتوبًا عليها صنع في اليابان، لكننا أدركنا بعد ذلك أن هذا لم يمكن متعمدًا.

جلسنا نحن الثلاثة نتحدث عن الرحلة، ونتذكر ماحدث لنا، وفي أثناء ذلك وصل عبدالسلام، وأخبرنا بأنه يود أن يطلعنا على بقية غرف القصر.

كان عدد الغرف كلها ١٥ غرفة، بما في ذلك غرفتنا، ودورة المياه، ومخزن الأمتعة، وغرفة الهاتف، وغرفة الطعام، إضافة إلى الغرفة المقابلة لغرفتنا في الجهة المقابلة لنا، إلا أن عبدالسلام لم يأخذنا إلى هذه الغرفة.

كانت الغرفة التي نزلت فيها مع الوزير أطل على وادي حنيفة، ويمكن أن نشاهد منها أشجار النخيل خلف القصر، في حين كانت غرفة المهندس تواجه غرفتنا مباشرة.

ذهبنا إلى الغرفة المخصصة لنا، كانت مظلمة إلى حدما، والطرقات المؤدية إلى الغرف أكثر إضاءة من الغرف ذاتها، ولكننا بالتدريج تعودنا على هذا الضوء الضعيف. كانت مساحة غرفتنا نصف مساحة غرفة الضيافة تقريبًا، فيها سرير عال جدّاً مصنوع من الصلب، ربما يكون مصنوعًا في أمريكا، ووضعت ناموسية في أعلى السرير. وكانت الوسائد والمراتب والألحفة مصنوعة من الحرير وسميكة، لكنها ناعمة الملمس، وكان لونها لون الورد، لذلك ظننت أن اللورد البريطاني الذي ينتمي إلى الأسرة المالكة نزل وزوجته في هذه الغرفة.

كانت تفوح من الغرفة رائحة الطين، وبها نافذتان مثلهما مثل نوافذ غرفة الضيافة، تطلعت

من النافذة فشاهدت حديقة أشجار النخيل، ورأيت حيواناً ظننته أسدًا، لكنني اكتشف بعد تدقيق أنه كلب.

كان سقف الغرفة مصنوعا من الطين، ويمكن من خلاله مشاهدة عروق سميكة من الخشب،[٤٦] وكانت الزخرفة والطلاء مثلهما مثل ماشاهدناهما في غرفة الضيافة .

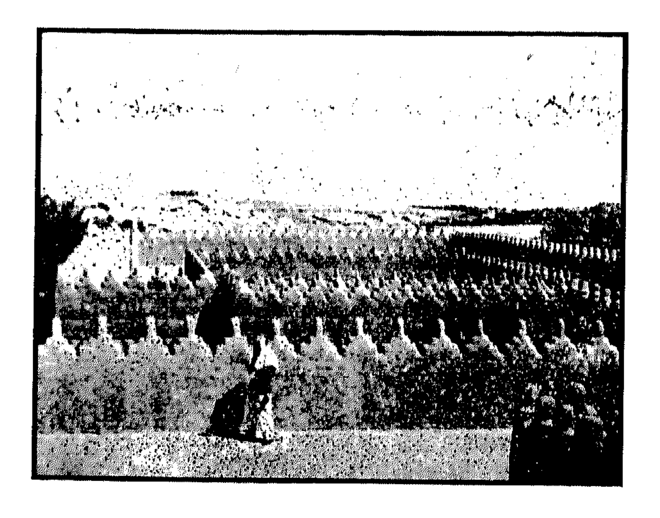
وبجوار باب الغرفة منضدة وكرسي، ومرآة على المنضدة لاتعكس جيّدًا ملامح من ينظر فيها، ممايدل على أنها غير مستوية، وهناك خط كهربائي في السقف، لكنه لايعمل، وكانت غرفة المهندس شبيهة بغرفتنا.

وتوجد دورتا مياه: واحدة قريبة من غرفتنا، والأخرى قريبة من غرفة المهندس.وكانت دورة المياه الكبيرة تتكون من ثلاث غرف: غرفة لخلع الملابس، ومساحتها (١٢ تتامي) تقريبا، ثم تنقسم بعدها إلى غرفتين: واحدة لقضاء الحاجة، والأخرى للاستحمام. ومعداتها مصنوعة من الخزف الوارد من بريطانيا. لم تكن في دورة المياه أوراق للتنظيف كما في اليابان!

أما غرفة الهاتف فهي آخر غرفة على طرف الطابق الثاني، والهاتف صناعة بريطانية، ويمكنه أن يتصل بأي من قصور الملك في الرياض.ولأول مرة بعد خمسة أيام من معاناة الرمال والتراب والعرق، استحممنا، لم تكن هناك مياه ساخنة،لذلك استخدمنا الماء الباردة الذي كان مريحا جدّاً، والصابون الموضوع في الحمام صناعة بريطانية ماركة «فينوريا» والفوطة صناعة مصرية، وعرضها متران مثل طولها، وكانت من النوع الجيد جدّاً. وعرفنا أن مياه الحمام تجلب بالطريقة نفسها التي تجلب بها من البئر بالسانية، ثم توضع في خزانات على السقف، واعتقد أن هذه الأشياء ربما وضعت هنا حين استقبلوا الضيف البريطاني وحرمه. (ربما يقصد الرحالة أنها تجلب بوساطة القرب التي تشبه الغروب).

---

(٤٦) ربما كانت من جذوع النخل.



الصورة رقم (٥٢) الوزير فوق سطح قصر البديعة



الصورة رقم (٥٣) الكاتب يجلس في ملحق قصر البديعة

مستشار الملك: يوسف ياسين

بعد الحمام شعرنا براحة كبيرة فداعبنا النوم، لكن يوسف ياسين - مستشار الملك السياسي- أتى ليرحب بنا نيابة عن الملك، كانت قامته أطول قليلاً من ١٦٠ سنتيمترًا، ويرتدي «مشلحًا» خفيفًا غامق اللون، وتحته جلباب أبيض، ويرتدي فوق رأسه غترةً من الحرير وعقالاً أسود، وجهه مدور إلى حد ما، وله لحية يبلغ طولها حوالي ٢٠ سنتيمترًا،[٤٧] عيناه سوداوان شديدتا السواد، مفتوحتان على الدوام قلّ أن يطرف له رمش، فهو يفتح عينيه دائماً. وأنفه معقوف، ويبدو من مظهره أنه سوري، وليس من البادية العربية.

تبادلنا معه التحيات مدة عشرين دقيقة، ثم قال: لماذا لانبدأ الليلة بترتيب برنامج الزيارة.

كان يتكلم العربية بلهجة سورية، لكنه كان في الغالب يتكلم الفصحى ببطء، ولمسنا أن لديه خبرة طويلة في التعامل مع الضيوف، وفي مجال العلاقات العامة، وفي إجراء الحوار مع البريطانيين والعراقيين وبلدان الشرق الأوسط، وهو مكلف بترتيب أمور العلاقات الخارجية فيما يتعلق باليابان والمملكة.

وأصبح المسؤول عن مرافقتنا في أي اجتماع رسمي من الآن فصاعدًا. كان يخلع العقال، فهو يعتقد أن هذا نوع من البروتوكول حين يكون برفقة الأجانب. وحين كنت أراقب طريقة كلامه وطريقة سلوكه كنت أتذكر دائمًا «راسبوتين» !! [٤٨] عيناه الكبيرتان اللتان لاترمشان أبدًا، وتظلان على الدوام مفتوحتين، وأحيانا حين لا يجد الكلمات التي ينبغي له أن يقولها، أو لايجد

(٤٧) يفهم من كلامه أن لحية يوسف ياسين كانت طويلة تصل إلى صدره، وليست كذلك، بل إن طولها لا يتجاوز سدس هذا المقدر، بناء على صوره الكثيرة التي احتفظت بها كتب التاريخ والتراجم. إلا إذا كان يريد طولها من ناحية استدارتها مع العرضين حول وجهه.

(٤٨) راسبوتن فلاح روسي (١٨٧٢-١٩١٦م) كان له نفوذ قوي في بلاط القيصر الروسي نيقولا الثاني، وعرف بشخصيته القوية.

إجابة لسؤال وجه إليه، فإنه يرفع رأسه، ويتطلع بعينيه الكبيرتين إلى السقف، وهذا ماجعلني فعلاً أتذكر «راسبوتين» إلا أن الرجل كان عطوفاً وودودًا معنا إلى حد كبير. أحيانًا كنت أشعر من خلال مظهره وطريقته بالشعور نفسه الذي أشعر به تجاه الهنود أو المصريين، ولكنه أحيانًا يكون جادًا جدًا، وتبدو على وجهه ملامح الشك الموجود بداخله، وهذه هي صفات الشخصية السورية تمامًا. ولكنه رغم كل هذا رجل مسلم، حسن الإسلام جدًا، وهو من النوع الذي يصعب أن أجد له شبيها في أي مكان آخر، إذ هو رجل يتمتع بشخصية فريدة حقا!! غادرنا الغرفة، وتناولنا طعام العشاء دون رمال أو غبار أو تراب هذه المرة، تكون العشاء من: حساء بالسمن ولحم الضأن والأرز وبعض الحلوى، وشعرنا بأن كل شيء منظم ومرتب ونظيف جدًا؛ فالأطباق والأكواب تمتاز بالبساطة، إلا أنها كانت مختومة باسم الملك، بحروف ذهبية، ربما أرسلها إلى القاهرة أو إلى بيروت لكتابة هذه الحروف عليها.

الساعة الثالثة بعد الظهر

اتصل بنا يوسف ياسين وقال لنا: إن الملك عبدالعزيز سوف يقابلنا عند الساعة الثالثة! فشعرنا في البداية أن الأمر غريب؛ لأن الساعة تجاوزت الثالثة فعلاً، لكن فهمنا أن هذا يعني الساعة الثالثة بالتوقيت العربي - وهو يطابق الساعة التاسعة لدينا- لأنهم يعدون الساعة بعد غروب الشمس معتمدين على وقت الغروب والشروق، ولم نكن قد تعودنا على هذا الأمر.

الساعة السادسة

قدم إلينا يوسف ياسين وعرفنا بمستشار الملك «خالد الحكيم» والمسؤول عن الشؤون الداخلية عبدالرحمن الطبيشي، ونائب المستشار السياسي رشدي ملحس! وسكرتيره إبراهيم.

في أثناء اللقاءات كان الحديث يدور بين الوزير الياباني ويوسف ياسين باللغة اليابانية والعربية والفرنسية، كان إبراهيم يتولى الترجمة من الفرنسية، وكنت بدوري أتولى الترجمة اليابانية، وبينما كنا نتناول طعام العشاء، شرع يوسف ياسين وإبراهيم في أداء الصلاة

(صلاة المغرب).

الساعة السابعة والنصف

بدأنا - على ضوء المصباح - عقد أول لقاء على مستوى المسؤولين في الخارجية اليابانية والخارجية السعودية: الوزير، يوسف ياسين، وإبراهيم، والمهندس الياباني، وأنا، لكن هذا اللقاء لم يكن كتلك اللقاءات التي تتم بين مختلف الدول، فالأمر كان مختلفاً. لايمكن بالطبع أن أذكر تفاصيل اللقاء، لأن هذا غير مسموح به.

ولهذا فلن أكتب تفاصيل اللقاء، وهو اللقاء الذي كان الهدف الأول والرئيس لرحلتنا هذه. وكان علينا أن نعقد لقاء كهذا مرة كل يوم من الأيام العشرة التي قضيناها في الرياض.

انتهى اللقاء الأول في تمام الساعة العاشرة والنصف ليلاً، بعد محادثات استمرت ثلاث ساعات. وتبلغ الساعة الآن الحادية عشرة تقريبًا، ودرجة الحرارة ٢٢ درجة مئوية.

اليوم السادس

مُقابلة الملك عبد العزيز

أول إبريل

الساعة الخامسة صباحاً

استيقظت، واستحممت، واستبدلت ملابسي، ولبست المشلح وتناولنا نحن الثلاثة طعام الإفطار - الوزير وأنا والمهندس - حيث قدموا لنا برتقالا طازجًا، وكان لذيذًا جدّاً.

الساعة الثامنة صباحاً

قدم إلينا عبدالسلام ومعه رئيس الحرس الذي رافقنا من جدة. وبدا الاثنان في أناقة شديدة؛ مظهر جميل وملابس نظيفة مرتبة، ووضع رئيس الحرس الطيب الذي يعشقه العرب وهو «دهن العود».

الساعة التاسعة إلا الثلث

تحركنا، ومعنا عبدالسلام ورئيس الحرس، واتجهنا إلى قصر الملك، والسائق الذي جاء بنا من جدة لبس حلة جديدة، فكان رائع الهندام، ذكر لنا أنه ذهب إلى السوق ليلة أمس، لشراء ساعة فالتقى بأحد أصدقائه هناك .. غير أنه لم يجد ما يريد فكان بادي القلق.

قال له الوزير: حين نذهب إلى جدة سأشتري لك ساعة من هناك، فسر كثيرًا بذلك، وقال مرددًا: أشكركم أشكركم .. واتجهت سيارتنا إلى القصر، وسرنا في الطريق نفسه الذي



سلكناه أمس، ثم دخلنا من بوابة قصر الشمسية،[٤٩] ووجدنا على بوابة القصر مائة من رجال الحرس، وعلى رأسهم رئيس الحرس الذي كان يلبس زيّاً شبيهًا بزي العسكريين المصريين، وكان معظمهم يضع العقال على رأسه،[٥٠] وشاهدت اثنين أو ثلاثة منهم بدون حذاء.

توقفت السيارة، وقدم يوسف ياسين وإبراهيم لاستقبالنا، وقادنا يوسف إلى الغرفة التي سنلتقي فيها بالملك، وهي غرفة الضيافة.

كانت الغرفة تتكون من مائة «تتامي»(التتامي ١٨٠X٩٠ سنتيمترًا) غرفة واسعة جدّاً، في كل جانب من جوانبها الأربعة مرآة كبيرة، رسم على كل منها صور أزهار وورود.

كانت الزخرفة رائعة وجميلة جدّاً، وجدران الغرفة مثل جدران غرف القصر الذي نقيم فيه، وفي السقف أربع مراوح أو خمس، بينما تدلت الستائر على النوفذ، ووضعت أرائك وكراسي من الخيزران، لكنها أفضل من تلك التي وضعت في القصر الذي نزلنا فيه، هذا وكانت أشعة الشمس تخترق النوافذ لتصل إلى داخل الغرفة الكبيرة.

دخلنا غرفة الضيافة، واتجهنا إلى رجل يجلس على كرسي ضخم ذي مساند، كان يرتدي مشلحًا، ويبدو طويل القامة، وعن يمينه جلس ثمانية رجال يلبسون المشلح، وأدركنا أن الرجل الذي يجلس على الكرسي الضخم هو الملك ابن سعود.

اتجهنا ناحيته ووقف من كرسيه، وسلم علينا سلامًا حارًا، بدأ بالسلام على الوزير، ثم المهندس، ثم بي وقال: «مرحبًا .. أهلاً وسهلاً.. أهلاً وسهلا وصلتم بأمان الله». وحين سلمت عليه قلت له «تشرفنا ..»

(٤٩) يقصد قصر المربع أو قصر الديرة على حسب رواية صاحب السمو الملكي الأمير بندر بن عبد العزيز.

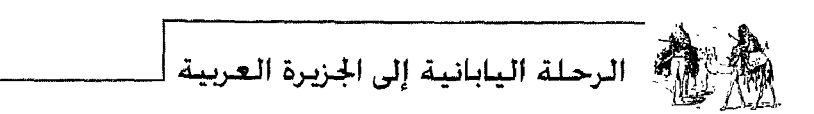
(٥٠) علق صاحب السمو الملكي الأمير بندر بن عبدالعزيز بأن هذا غير صحيح.



الصورة رقم (٥٤) منظر قصر الشمسية عن بُعد



الصورة رقم (٥٥) جانب من قصر المربع



كانت يد الملك ناعمة ملساء، وعلى إثر إشارة منه جلس الوزير عن شماله، وجلست والمهندس عن يمينه، وبجواري جلس إبراهيم ويوسف ياسين على يسار الملك كانت هناك طاولة وضع عليها جهاز هاتف ومنظار كبير (للرؤية البعيدة) ونسخة من (القرآن الكريم)

شعرت بأن الملك أطول مني بحوالي خمسة عشر سنتيمترًا، فهو طويل القامة جدّاً،، ربما تصل قامته إلى ١٨٠ سنتيمترًا، فمظهره يدعو للاحترام الشديد، فهو ملك حقّاً وصدقًا، وعلى رأسه عقال مطرز بخيوط مذهبة مع الخيوط السوداء، وكانت الغترة التي يضعها على رأسه بسيطة جدّاً، مصنوعة من القطن مثل الغترة التي يضعها سائقنا على رأسه، لافرق بين الاثنين على الإطلاق، وتحت المشلح كان الملك يرتدي قفطانًا واسع الذيل.

وقد شاهدت مثل هذا على طلاب الأزهر في مصر، لم يكن يضع حذاء في قدميه، بل كان يلبس جوربًا من نسيج سميك.

وسمعت أن الملك لايحب الرائحة الكريهة وينفر منها، ويحب الطيب، وقد شعرت بهذا عندما اقتربت منه، شعرت برائحة الطيب .. طيب من النوع الغالي، تفوح من جسده.

والملك في هذا المشلح أعطانا انطباعا بأنه ملك حقّاً، ملك لهذه المنطقة بلا منازع، فهذا المشلح يناسبه تمامًا، ويتناسب مع شخصيته التي تمتاز بالوقار والهيبة.

وجهه طويل إلى حد ما، يزينه شارب ولحية سوداء جدّاً، إلا أن الشارب كان أكثر سوادًا من اللحية، وكان كثيفًا جدّاً أكثر مما هو لدى العرب عادة، لم أر له مثيلاً من قبل، عيناه كبيرتان واسعتان، لكن شعرت أن عينه اليسرى تعاني من شيء ما، ولاحظت أن إصبعه الوسطى في يده اليسرى بها قطع، وهذا يعني أنه خاض قتالاً ضاريًا من قبل، وفي يده اليمنى لاحظت خاتما به حجر كريم، لاأعرف اسمه لبسه في الإصبع الصغرى، وكان تحت عين الملك اليسرى «خال» كبير.

كانت بشرته سمراء، لكنها بالنسبة لنا كانت مليحة جذبت عيوننا، صوته كان خافتا، وفيه «بحة»: حين سمعت صوته لأول مرة كنت أتعجب كيف يمكن لصاحب هذا الصوت أن يصيح أو يقود الناس في الصحراء بهذا الصوت الخافت.

وحينما كنا نتبادل الحديث كان الملك يبتسم دائمًا، ولم نلاحظ عليه أبدا أي مظهر من مظاهر الغضب أو الامتعاض أو حتى الملل.

شعرت أنه ملك مختلف تمامًا عن الملك فاروق في مصر. عربيته التي يتحدث بها قريبة من الفصحى، لكنه يتحدث أحيانًا بلهجة نجدية، وتصدر عنه أحيانا عبارات بلهجة سورية، كنت أحيانًا لا أفهم مايقول، وكان الحديث يدور في معظمه مع الوزير، إلا أنه أحيانًا كان يوجه الحديث إليّ مباشرة .

كنا نتحدث عن الدين والموقف الدولي والأمور السياسية، ولمدة ساعة وطوال الوقت كان يبدأ حديثه عادة بعبارة: « سعادة وزير اليابان».

وحين كنا نتكلم عن الاتفاق الذي سيعقد بين السعودية واليابان، وعن الأحوال داخل المملكة العربية السعودية، والعلاقات مع الدول الأخرى، كان دائماً يبتسم وينظر إلى يوسف ياسين وإلى الآخرين مرددًا:

أليس كذلك يايوسف...؟

أليس كذلك ياخالد...؟

وذلك بطريقه كلها بساطة وود.



نقاش مع الملك

كما ذكرت قبل ذلك لايمكن أن أكتب شيئا عما دار بيننا وعما اتفقنا عليه، أو عما كان ينبغي لنا مناقشته أو التحدث فيه. لايمكن أن أكتب شيئًا فيما يتعلق بموقف السعودية أو قضاياها، لكن أذكر هنا أن الملك قال: «بلدنا بلد تحكمه الشريعة، والشريعة هي حكمنا، ولاشيء غيرها، وأمام الشريعة جميع الناس سواسية؛لذا فإن الديمقراطية الغربية التي تطبق بالقوة هي بالنسبة لنا وبالنسبة لبلدنا ليست ديمقراطية حقيقية، عندنا الشريعة، وهي دستور العرب، والمسلم الذي يؤمن إيمانًا حقيقيًا بالشريعة لايفرض عليه بالقوة شيء، ولتحقيق الأمن لانلجأ أبدًا إلى القوة، وقد سلمنا المسؤولية لأمير كل قبيلة، وعلى الأمير نفسه أن يتعامل مع أهل قبيلته، وأن يؤدي واجبه. فإذا ما حدث شيء - لاقدر الله - تكون هذه مسؤولية أمراء القبائل، ولهذا فنحن الآن نعيش مرحلة أمن وحالة أمن».

وعن العلاقات الدولية قال الملك: «نحن نريد أن تكون لنا علاقات طيبة بالدول المجاورة، وبالدول القوية في أوربا، كما أننا لانحمل بغضًا ولانحمل كراهية لأحد ، وعلى سبيل المثال لانحمل بغضًا لدولة المانيا أو إيطاليا أو بريطانيا أو أمريكا أو فرنسا، ونحن نحترم اليابان باعتباره بلدًا عظيمًا في جنوب شرقي آسيا».

وعن الشيوعية قال الملك«الشيوعية .. نحن لانوافق عليها أبدًا، بل نود أن تنتهي. وهنا تبذل محاولات، لكن رجال بلدنا لايقبلونها أبدًا، وهذا أمر واضح تماماً، ولهذا نحن نعتقد أن الشيوعية لايمكن أن تأتي إلى بلدنا أبدًا، ومن هنا فنحن لا نشعر بوجود مخاطر من الشيوعية تجاه سياستنا».

وعن اليهود قال الملك: «اليهود كانوا دائما أساس الصراعات التي تدور في أوربا، وهم أساس الصراعات التي تدور الآن، وفيما يتعلق بإخوتنا في فلسطين سوف نساعدهم بكل مالدينا، ولقد أوضحت هذا تمامًا حين كتبت إلى الرئيس الأمريكي روزفلت، أرسلت له رسالة خاصة،

وقلت له: إن اليهود سوف يتسببون في إيجاد مشكلات عديدة في جميع أنحاء العالم».(٥١)

ثم قال الملك لنا مباشرة: «وأنا آمل أن تقوموا في اليابان بدعم رأيي هذا.»

وشعرت بأنه كان منفعلاً وعاطفياً حين كان يتكلم عن اليهود.

تحدثنا كثيرًا في موضوعات ليست مهمة، لذا لن أكتب عنها، لكن خلال الاجتماع تحدثنا عن ابنه الثاني فيصل الموجود في لندن في ذلك الوقت، أخبرت الملك بأنني والوزير التقينا به في القاهرة، فسر الملك كثيرًا، وظهرت أمارات السرور على وجهه واضحة، كما لو كان عاجزًا عن كتم سعادته، وراح يسألنا: كيف كان فيصل؟ هل كان في صحة جيدة ؟ وراح يسألنا أسئلة تفصيلية عنه، ثم ذكر لنا أن الأمير فيصل قادم خلال أيام وسوف يسعد كثيرًا لو التقى بنا في الرياض كان يتكلم بأحاسيس الأب والوالد لا الملك.

عرفنا أن الملك يحب الأمير فيصل حبّاً جمّاً.

بعد نصف ساعة، دخل علينا رجل يبدو في الثانية والأربعين من عمره، يضع نظارة على عينيه، قامته طويلة إلى حد ما، نظر إليه الملك، وقال إنه أحد أولادنا، إنه الأمير سعود، فأردنا أن نحييه، لكن الملك قال: «فيما بعد، فيما بعد»، فأومأنا إليه بأيدينا. كان الأمير مهذبًا جدّاً، جلس على الكرسي بأدب شديد، وراح يستمع إلى حديثنا.

---

(٥١) مما قاله الملك عبدالعزيز في رسالته الثانية للرئيس الأمريكي روزفلت التي أرسلها في ربيع الثاني سنة ١٣٦٢هـ (٣٠ إبريل ١٩٤٣م) «..لو أعطي اليهود بغيتهم في فلسطين، لظلت فلسطين مقراً لفتن دائمة، كما حصل في الماضي ... واليهود بما أوتوا من قوة في المال والعلم، قادرون على إيقاع الشقاق بين العرب والحلفاء في كل وقت، كما كانوا سبباً لكثير من المشاكل التي وقعت من قبل. (ص ١١٢٤، خير الدين الزركلي، شبه جزيرة العرب في عهد الملك عبدالعزيز). ومما هو جدير بالذكر أن هذه السياسة التي تنتهجها المملكة من الدولة الصهيونية المغتصبة، ومن إخواننا في فلسطين هي الثوابت الراسخة التي تعنى بها المملكة وتسعى جاهدة إلى إحقاق الحق وإعطائه لأصحابه. وما فتئ ولاة الأمر في هذه البلاد يولون القضية الفلسطينية جل اهتمامهم ويدافعون عنها في المحافل الدولية.

قال الملك للمهندس ميتسوتشي إنه طلب من أمريكا حفر بئر ماء أمام قصر البديعة. وسأله هل هناك احتمال لوجود ماء في الموقع؟ فرد المهندس: لايمكن أن أبدي رأيي سريعًا الآن، لكن أمهلني ليوم غد، سأقوم بدراسة جيولوجية هذه المنطقة، وأعطيكم جوابي.

وفي أثناء المناقشة قدموا لنا الشاي والقرفة والقهوة، قدموا لنا الشاي مرة واحدة، لكن القهوة قدمت عدة مرات، كان طعمها لذيذًا، كانت كالقهوة التي شربناها من قبل، لكن «فناجين» القهوة كانت «فناجين» عادية، وكان الحارس الذي يقدم القهوة لايضع حذاء في قدميه.

الساعة العاشرة والنصف

انتهى الحديث تقريباً، وشعرنا بأنه لم يعد هناك داع لجلوسنا، ولكن كلما هممنا بالاستئذان بدا الملك وكأنه لايريد أن يتركنا نذهب، وأوقفنا أكثر من مرة عن مغادرة المكان، وراح يرحب بنا.

دعوة من مهندسين أمريكيين

الساعة الحادية عشرة

رجعنا إلى مكان إقامتنا، وجاء إلينا يوسف ياسين ليخبرنا بأننا سنتابع الحديث معاً في الساعة الواحدة، لكن الساعة الواحدة تعني الرابعة.

وهكذا جاء يوسف ياسين ثانية، ودار بيننا الحديث حتى الساعة السابعة، أي لمدة ثلاث ساعات.

الساعة الثانية

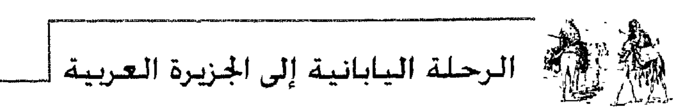
أخذنا تصريحًا من الملك لندعو مهندسين أمريكيين يقيمان بالمبنى المجاور لنا. وخامرنا شعور

غريب، لم نر من قبل هنا غير العرب، لكن اكتشفنا الآن وجود أجانب، فرأينا أن ندعوهم إلى لقاء نشرب فيه الشاي. فرح المهندسان الأمريكيان حين قدمنا لهما الدعوة، كان أحدهم في الثامنة والأربعين من عمره، والآخر شاباً يبدو أنه في الثامنة والعشرين، كان الأول ثرثاراً بطبعه، وهو أمريكي قح، طريقته في كلامه .. كل شيء فيه أمريكي .. وكان يعمد إلى إشعال السجائر باستمرار أثناء الكلام، أما الثاني فهو شاب رزين لم يكن يتكلم كثيرًا، وكان يتسم بالهدوء، واسمه R. P. Gierhart، أما المهندس الأول الثرثار فكان يدعى .Schlosslin قدم هذان المهندسان الأمريكيان إلى هذا المكان منذ سبعة أشهر بدعوة من الملك، وقد دخلا هنا من خلال شركة زيت الحسا، ومنذ ذلك الوقت وهما يقومان بحفر بئر للمياه أمام قصر البديعة.

تخرج المهندس الشاب R.P.G من جامعة كاليفورنيا، وهو من موظفي شركة Company Standard ، أما المهندس الثرثار فلا يحمل مؤهلاً عاليًا، لكنه عمل في الصين والأمازون وأمريكا الجنوبية، كما شارك في حفر آبار البترول في البحرين. ذكر المهندس Schlosslin أنه زار اليابان فترة.

ثم التقينا بهما بعد ذلك عدة مرات، وتبادلنا معهما الأحاديث عن أمور كثيرة مختلفة، وأذكر على لسانهما هذه الحكاية: «البئر الذي يجري حفره أمام قصر البديعة تم حفر ٢٣٠ شاكو(٥٢) (حوالي ٦٩مترًا) ولكن لا أثر لوجود ماء على الإطلاق، والحقيقة أننا نشك في وجود ماء في هذه المنطقة وقد قدمنا هنا بموجب عقد مدته ثلاث سنوات، لكن لو ذكرنا بأنه لا أمل في وجود ماء فسوف يفسخ العقد، ونرجع من حيث أتينا، والحكومة السعودية تقدم لنا خمسين ألف دولار من أجل حفر البئر، ولدينا ٨ عمال، كلهم نشيطون مجتهدون، نعطي الواحد منهم روبية كل يوم، وسوف نحصل على معدات جديدة للحفر، وسنحاول الحفر مرة ثانية، لكن لا يمكن أن نجزم بوجود الماء، يمكن أن نقول إنه قد لايوجد ماء.»

(٥٢) الشاكو حوالي ٣٠سم.



كان لدى المهندس الشاب سيارة خاصة، وقد عبر صحراء الدهناء ثلاث مرات، وذهب إلى البحرين، وذكر أن السفر إلى البحرين يكون عن طريقين، الطريق عبر الكويت - وهو أسهل - أما عبور صحراء الدهناء فيستغرق في الغالب ثلاثة أيام، ومن الأفضل عندئذ استخدام سيارة لها عجلات خاصة.

وذكرا أن خريطة الجزيرة العربية المطبوعة في بريطانيا خريطة لا فائدة منها، وقالا إنهما يكرهان اللورد أثلون البريطاني، لكن لم يذكرا لنا سبب كراهيتهم له، وقالا:

«إذا بقينا هنا ثلاث سنوات، فلن نحتاج أن نعمل بعد ذلك، فسوف تكفينا رواتبنا التي نحصل عليها هنا مدى الحياة». إنني أشك تماماً في كلامهم هذا، وقالا أيضًا:

«إن الطريق المؤدي إلى قصر الملك، يتم تعبيده الآن على يد مهندس مصري مسؤول عن هذا العمل، والحكومة تعطيه راتبًا كبيرًا، لكنه لايعمل أبدًا..».

وشكا الاثنان من عزلتهما ووجودهما بعيدًا عن النساء، فقالا: «نحن بعيدون عن النساء منذ سبعة أشهر، لم نر امرأة بدون حجاب هنا، لهذا نشعر بالتعب والقلق..».

لم يحلق المهندس الشاب لحيته منذ سنة تقريباً، وأحيانًا يقوم بزيارة معسكر شركته في الحسا، ويظل المهندس الثرثار هنا وحيدًا، وحين يذهبان إلى الدمام يمكنهما الحصول على الطعام الأمريكي، كما يمكنهما الاستماع إلى الموسيقى الأمريكية، وإذا ذهبا إلى البحرين أمكنهما مشاهدة الأفلام، وغير ذلك من أمور.

وفي حوالي الساعة العاشرة مساءً تركنا الأمريكيان وذهبا، وبقيت مع الوزير في مناقشة ماقالاه، وأوينا إلى مخادعنا، طلبًا للنوم في حوالي الساعة الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل.



الصورة رقم (٥٦) الكاتب والمهندس الياباني برفقة المهندسين الأمريكيين في

غرفة الضيوف بقصر البديعة



اليوم السابع

حديقة النخيل في قصر البديعة

الثاني من إبريل

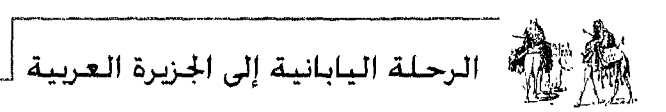
اليوم هو يوم الأحد، لكن يوم الأحد هنا لامعنى له،فهو يوم لايختلف عن بقية أيام الأسبوع، ولهذا استمرت لقاءاتنا ومحادثاتنا في يوم الأحد أيضًا، في الحمام (المغطس أو البانيو) وجدنا ماءً ساخنًا، وشعرت بالتعاطف مع الخدم الذين ملأوا المغطس بهذا الماء الساخن.

لاندري الآن متى سيبدأ الاجتماع ثانية، ولهذا لايمكن أن نخرج، عادة ماتكون أوقات العرب غير محددة تماماً، إلا فيما يتعلق بأوقات الصلوات، فهم ملتزمون بها التزامًا قويًا.

الساعة الثانية عشرة

حضر يوسف ياسين، وتحدثنا قليلاً، وتناولنا طعام الغداء معًا، وفي أثناء تناول الطعام قال: «الناس يقولون: إن الملك له أكثر من مائة وخمسين أميرًا، هم أنجاله، لكن بعضهم ليسوا من أبنائه، فهو يربيهم ويرعاهم منذ أن فقدوا آباءهم أو إخوانهم الذين كانوا يحاربون جنبًا إلى جنب مع الملك» .. ثم دار الحديث عن فيلبي فقال ياسين: «فيلبي رجل قوي، شديد، صلب، حين ذهب لاستكشاف منطقة الربع الخالي أكل لحم الجمال نيئًا»..

ظل يوسف ياسين يتكلم ويأكل، أكل كمية من الطعام تساوي ضعف ماأكلنا، قال معتذرًا: إنه لم يتناول طعام الإفطار، وعلى الرغم من هذا تعجبنا كيف يمكنه أن يأكل مثل هذه الكمية الكبيرة من الطعام دفعة واحدة.



وبعد تناول الطعام قام يوسف ياسين وسكرتيره إبراهيم بأداء صلاة العصر.. كان قد قال لنا منذ فترة: إنه يود أن يفسحنا في حديقة النخيل خلف القصر. فذهبنا معًا برفقة حارسين. كان في الحديقة مايقرب من خمسمائة نخلة، كان المنظر رائعًا بديعًا خلابًا. كانت ثمار البلح تنحني بشكل يعطيها منظرًا جميلاً .. لم يكن البلح قد نضج بعد، لذلك لايمكن أن يؤكل الآن، وعلى الأرض كانت هناك نباتات خضراء - لا أعرف اسمها - نبتت حديثًا، كما شاهدت أربعاً من الغنم ترعى هذه النباتات التي كانت سعيدة بالعشب الأخضر. ورأينا المبنى الذي يسكن فيه المهندسان الأمريكيان، وبجانب حافة كل مبنى يوجد أنبوب يحمل الماء إلى الحديقة، ولهذا كانت الحديقة وافرة بالمياه، وكانت هناك «سانية» لكنها أكبر من تلك التي شاهدناها في الجبيلة.

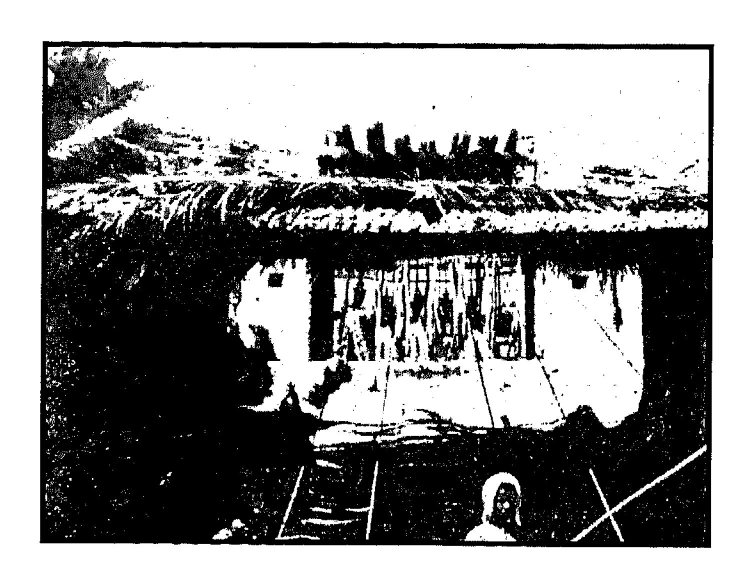
كان عمق البئر حوالي ٢٥ مترًا، وبجوار السانية اثنا عشر حمارًا، وهذا يعنى أن «السانية» تعمل طوال أربع وعشرين ساعة دون انقطاع، وعلى الرغم من هذا توجد آلة رفع للمياه، لكننا لم نطلع عليها جيدًا نظرًا لضيق الوقت، وحين عدنا إلى المبنى بدأت السماء تمطر مطرًا غزيرًا غير متوقع، ربما أن رياح المحيط الهندي حملت هذه السحب والغيوم المحملة بالأمطار. كان العرب من حولنا في منتهى السعادة والسرور فهذا بالنسبة لهم خير وفير.

الساعة الثامنة إلا الربع

بدأنا (الوزير والمهندس وأنا) الاجتماع مع يوسف ياسين، وكان الموضوع المطروح للمناقشة موضوعا دقيقًا جدّاً، غير أنني لاأستطيع أن أكتب عنه شيئًا.

وسألنا يوسف ياسين عن سفرنا إلى الحسا، فقال: إنه سيحدث الملك في هذا الأمر، ويخبرنا بالنتيجة فيما بعد.

وعاد ياسين من حيث أتى.



الصورة رقم (٥٧) السانية في حديقة قصر البديعة



الصورة رقم (٥٨) المهندس في حديقة النخيل بقصر البديعة

دعوة من المهندسين الأمريكيين

الساعة الثامنة مساءً

دعانا المهندسان الأمريكيان إلى حيث يسكنان، كان المبنى الذي يقيمان فيه أقل جودة من المبنى الذي نقيم فيه نحن، وأمام المدخل وقف حارس نحيف يحمل بندقية. دخلنا وصعدنا إلى الطابق الثاني، كانت هناك غرفة ضيافة أو غرفة معيشة خاصة بهما، أو ربما هي غرفة نومهما، أو هي غرفة يستخدمانها لجميع الأغراض، كانت مساحتها حوالي (٣٠ تتامي) (التتامي ٩٠ X١٨٠ سنتيمترًا)، وكان في الغرفة سريران بسيطان جدّاً وضعا في ركن الغرفة، وشاهدت في السقف قماشا! لكن ليس من النوع الجيد، وللغرفة نافذتان صغيرتان، وعليهما أعمدة من الحديد، وعلى أرض الغرفة آلة لقياس المسافات وأريكتان وبعض الكتب وحقائب من القماش مملوءة بالأحجار التي جمعت لدراستها جيولوجيّاً، كانت الغرفة مبنية من الطين، وفيها مصباح واحد، والنور فيها ضعيف جدّاً، فهي أكثر ظلامًا من غرفتنا. في مثل هذه الغرفة عاش المهندسان أكثر من سبعة أشهر.

الصورة رقم (٥٩) مدخل ملحق قصر البديعة، مقر إقامة المهندسين الأمريكيين

ويسمى هذا المبنى «قصر الصيفية» وقد اعتاد الملك أن يأتي إلى هذا المكان في وقت الحر الشديد. ولكني على كل حال شعرت أن الغرفة غير مناسبة، وشعرت بالعطف نحوهما.

قالا إنهما سيأخذاننا إلى غرفة الطعام، وذهبنا معهما ولكننا وصلنا إلى سطح المبنى. كان هذا هو غرفة الطعام الخاصة بهما، أرفف كبيرة عليها حوالي ثلاثمائة علبة من الطعام المحفوظ المصنوع في أمريكا، قالا: إنهما أحضراها من معسكر الحسا، وبدا كأن لديهم دكانًا كاملاً لبيع المعلبات وتخزينها.

كان الطباخ سودانيّاً، ويتكلم العربية بلهجة مصرية، فأعاد إليّ ذكرى أيامي في القاهرة، وشعر تجاهي بالراحة والألفة، وتذكر أهله وعاوده الحنين إليهم، وكنا كصديقين حميمين التقينا معًا بعد فراق سنوات طوال!!

كان الطعام الذي قدم لنا - بالطبع - مكونا من العلب المحفوظة وشوربة البصل والسردين والكمثرى المعلبة.

لم يكن بالسوء الذي توقعناه على كل حال، وتمنيت أن أتناول السلطة الخضراء، إلا أن ذلك لم يكن متوافرًا لديهم.

الساعة العاشرة

عدنا إلى غرفتنا، وكانت درجة الحرارة في حدود ٢٥ درجة مئوية، والجو كان يميل إلى الرطوبة، ثم أوينا إلى فراشنا، واستغرقنا في النوم.



اليوم الثامن

جولة في مدينة الرّياض

الساعة السابعة صباحاً

استيقظنا من النوم، وهذا اليوم هو إجازة قومية في اليابان تتعلق بمناسبة خاصة بالإمبراطور،[٥٣] ولهذا فالأعمال التجارية في اليابان متوقفة، والمحلات مغلقة .. تناولنا طعام الإفطار، لم يكن هناك ما أتوق إليه من الطعام الطازج، لكن ماالعمل!!

وبعد الطعام بدأت أعد لإرسال برقية لوزارة الخارجية، وذلك بآلتي الكاتبة التي كنت أحملها معي، ثم ذهبت مع المهندس ميتسوتشي وأخذت صورة للحديقة. وحين أردنا أن نتجول ونشاهد مدينة الرياض، طلب عبدالسلام منا التريث حتى يسأل الملك ليرتب لنا الأمر، وقام بالاتصال بيوسف ياسين الذي تأخر في الرد فترة طويلة، وخلال هذا الوقت أحضر عبدالسلام مقالاً قال إنه سيرسله إلى جريدة «أم القر ى» عن رحلتنا، وشاهدنا مسودة ماكتب.[٥٤]

جاء رد يوسف ياسين إيجابياً، وذكر بأنّ في الإمكان أن نذهب لمشاهدة مدينة الرياض،

---

(٥٣) كانت هذه الإجازة قبل الحرب، ولا وجود لها الآن.

(٥٤) هذا نص ماورد في العدد ٧٤٧ السنة ١٥ الجمعة ١٧ صفر ١٣٥٨ الموافق ٧ إبريل ١٩٣٩م وذلك في الصفحة الخامسة. بلاغ رسمي رقم (٣٧) جاءنا من قلم المطبوعات البلاغ الرسمي الآتي:

وصل جدة في الأسبوع الماضي سعادة ماسايوكي يوكوياما وزير اليابان المفوض في مصر، وقد توجه تواً إلى الرياض، حيث وصلها صباح يوم الجمعة الماضي، يرافقه سكرتيره (إيجيرو ناكانو) وأحد الخبراء الفنيين ←



والتجول فيها في الساعة الحادية عشرة من هذا الصباح. فشعرنا بأنهم يعاملوننا معاملة ضيوف مهمين، وانطلقنا لنشاهد مدينة الرياض.

قالوا لنا: إن سكانً مدينة الرياض ٢٠.٠٠٠نسمة، فسألت نفسي متعجبًا أين يسكن هؤلاء؟! لم أر أناسا كثيرين هنا .. ومضينا في الطريق المؤدي إلى وسط المدينة، فشاهدنا المباني المشيدة من الطين، كان هناك محل لبيع الطعام المعلب وزيت الطعام، وكان يمكن أن نرى علب طعام كتب عليها «صنع في اليابان» ورأيت الناس الذين يمشون بدون أحذية، والنساء كلهن يلبسن الحجاب الأسود، وفي الطريق رأينا سيارات فيها نساء، وضعت على نوافذها ستائر، ربما كانت النسوة من الأسرة المالكة. ومرت سيارتنا بجوار قلعة أو قصر «قصر المصمك» قالوا لنا إنها أقدم قلعة للأسرة السعودية، وقد وقعت مرة في قبضة الأتراك، [٥٥] ومن بعدهم آل رشيد من حائل. وفي سنة ١٩٠١م (الصحيح هو ١٩٠٢م)، قام جلالة الملك عبدالعزيز- وكان في العشرين من عمره - ومعه خمسة عشر نفرًا من أصدقائه بالهجوم على القلعة، وتمكن من تسلق سورها والسيطرة عليها. وداخل هذا القصر توجد الآن سلطة نجد، والأمير سعود ولي العهد يقيم هنا أيضًا، كما توجد في القصر أيضًا الشعبة السياسية، التي نظمها يوسف ياسين، ويوجد أيضًا مقر الوزارات المختلفة.[٥٦]

دخلنا القلعة أو القصر، وصعدنا إلى الطابق الثاني، كانت الزخارف الداخلية تشبه تلك الزخارف الموجودة في قصر الشمسية الذي يقيم فيه الملك. دخلنا الغرفة الخاصة بالشعبة

← (تومون يوشي مي سوسى) وتشرف بمقابلة جلالة الملك المعظم صباح يوم السبت، فلقي من جلالته كل عطف ورعاية، كما هي عادة جلالته مع ضيوفه المكرمين، وقد دارت محادثات بين سعادنه، وسعادة الأستاذ ياسين لوضع معاهدة صداقة تجارية بين المملكة العربية السعودية وإمبراطورية اليابان، وسيجري التوقيع عليها بعد إطلاع حكومة اليابان وموافقتها عليها.

(٥٥) هذا خطأ من المؤلف حيث لم يحدث أن وقع قصر المصمك في قبضة الأتراك.

(٥٦) لم تكن في ذلك الوقت وزارات بالمعنى الذي تدل عليه الكلمة، بل إدارات تتولى شؤون الدولة المختلفة، وإنشاء الوزارات تم بعد قيام الرحالة برحلته بزمن.

السياسية التي بدت كأنها مكتب عادي، لكن مساحتها واسعة، وتوجد فيها منضدة كبيرة جدّاً، وعلقت على الحائط خريطة للعالم باللغة العربية، وخريطة لشبه الجزيرة العربية مطبوعة في بريطانيا، وعلى المنضدة وضع جهاز هاتف، وكرة كبيرة مرسوم عليها خارطة العالم، وكرسي مصنوع من الجلد. لكن الإضاءة في الغرفة لم تكن كافية تماماً مثل الإضاءة في غرفتنا التي نزلنا فيها، وعلقت على الحائط ساعة، كانت تشير إلى الساعة السادسة بالتوقيت العربي.

قدّم لنا يوسف ياسين الشاي والقهوة، وجاء لتحيتنا والترحيب بنا خالد الحكيم مستشار الملك، وسكرتيره، وطبيب الملك السوري،(٥٧) وهو رجل اجتماعي بطبعه.

تحدث معنا الطبيب السوري كثيرًا عن تجربته حين كان في باريس، بينما كان خالد الحكيم مهتمّاً كثيرًا بموقف اليابان، قال: إننا نعاني من نقص الكتب المؤلفة عن اليابان باللغة العربية، وأردف قائلاً: إنه قرأ كتابا عن رحلة إلى اليابان بقلم أحد مدرسي المدارس العليا في القاهرة، وهي رحلة مهمة جدّاً، لكنها قديمة جدّاً.(٥٨)

فقلت له: اليابان تغيرت الآن كثيرا جدّاً، وهي مختلفة تماماً عن ذي قبل: فقال: «أرجو متابعة إرسال بعض الكتب التي تتعلق باليابان على أن تكون باللغة العربية، لأن الأمر لايتعلق بنا نحن فقط، بل يتعلق بالبلدان العربية كلها وبخاصة البلدان المجاورة لنا، فهي مهتمة باليابان» ثم نصحني قائلا «أحيانا نتلقى بعض المنشورات وبعض الكتيبات يرسلها الصينيون المسلمون، هكذا يقولون المسلمون، وهي في معظمها موجهة ضد اليابان، وتأتي بصفة خاصة إلى منطقة مكة. ونحن بطبيعة الحال لانصدق كل مايرسل إلينا، لكن إذا استمر هذا الأمر على ماهو

---

(٥٧) هو الدكتور مدحت شيخ الأرض.

(٥٨) يشير خالد الحكيم إلى الشيخ أحمد البرجاوي (...-١٣٤٠هـ- ١٩٢٢م) مدير جريدة الإرشاد الأسبوعية الذي سافر إلى اليابان سنة ١٩٠٥م، وعاد ليكتب عن سفره كتاباً بعنوان الرحلة اليابانية طبع عام ١٣٢٥هـ-١٩٠٧م، ثم طبعت طبعة جديدة منه، مع تحقيق ودراسة وصدرت عن مؤسسة الرسالة بيروت.

عليه فإنه يؤدي إلى خسارة اليابان، وتشويه الصورة اليابانية أمام الشعوب العربية.»

فوعدناه بإرسال كتاب «اليابان» الذي صدر عن الجمعية الثقافية لمسلمي اليابان Japan Muslim Culture Association ، وأيضا كتاب«اليابان بلاد الشمس المشرقة»، وهو مطبوع في القاهرة، وقلت له أيضًا: إننا سنهتم بكل ماقاله، ونضعه في اعتبارنا، وسنبلغه للجهات المسؤولة.

وعبر النافذة الصغيرة لهذه الغرفة كان يمكن أن أرى السوق، شاهدت قافلة تتكون من نحو خمسين بعيرًا، تتجه ناحية السوق، وحين أردت أن التقط صورة، قال يوسف ياسين: لا، ليس من المناسب أن تلتقط صورة للسوق.

وحين خرجنا من الغرفة شاهدت ثلاثة أولاد، يرتدي كل واحد منهم عقالاً مقصباً بخيوط مذهبة، ويحمل في يده نسخة من (القرآن الكريم)، فقال يوسف ياسين: «إنهم أحفاد الملك قدموا من الكُتّاب حالاً، والكُتّاب موجود في هذا القصر، ويدرس فيه أربعون طفلا تقريبًا، معظمهم من أبناء الملك وأحفاده».

ومن فوق سطح القصر التقطت صورة، إلا أنني اكتشفت فيما بعد أن الصورة لم تظهر بصورة جيدة.

أبدينا رغبة في زيارة السوق، فذهبنا مع عبدالسلام، وبعد أن وصلنا إلى هناك كان وقت الصلاة قد حان فلم نجد أحدًا، كانت هناك «دكاكين» تبيع الملابس، ودقيق القمح، والأرز، وهي «دكاكين» بنيت بالطين، وغطي سقفها بجذوع النخيل.

وبعد الصلاة ذهبت إلى دكان يبيع القماش، كانوا يبيعون الحرير والقماش المصنوع من «النايلون»، وكانت الأقمشة في معظمها مصنوعة في اليابان.



الصورة رقم (٦٠) أطفال من الرياض



الصورة رقم (٦١) السوق في الرياض بعد الظهر

وكنت أرتدى غترة سميكة غالية، فقررت أن أشتري غترة خفيفة نظرًا لحرارة الجو، وسألت عن الثمن فقالوا: ثلاثة ريالات، وكانت تباع في جدة بنصف هذا الثمن، وربما يعزى هذا الفارق في الثمن إلى ارتفاع تكلفة النقل إلى هذه المسافة البعيدة!

واشتريت من محل يبيع الأرز ودقيق القمح بعض النعناع والقرفة، والبهارات المختلفة الأخرى.

وحينما شاهدت الطحلب الجاف يباع، تعجبت كثيرًا، لإنه حينما شاهدنا الأمريكان والأوربيون ونحن نأكل «نوري» [٥٩] قالوا بأننا نأكل الورق الأسود، فكان الأمر بالنسبة لي أيضًا في غاية العجب أن أرى العرب يأكلون الطحلب الجاف.

الساعة الثانية عشرة والنصف

غادرنا السوق، ومررنا في طريقنا بمكتب الهاتف والبرق، كان هناك عمودان هوائيان كبيران، ويقدر ارتفاعهما بمائة وخمسين مترًا تقريبا، وأخبرنا بأن الأمريكيين قاموا ببنائهما، وفي غرفة «اللاسلكي» رأينا آلتي إرسال، قوة الأولى ٦ كيلو وات، وقوة الأخرى ٤٠ وات، وشاهدت عشرة موظفين من العرب يعملون، وكانوا جميعاً لايرتدون أحذية.

دعوة عشاء على شرف
صاحب السمو الأمير النائب الأول (ولي العهد)

بعد المغرب ذهبنا إلى القصر الذي يعيش فيه صاحب السمو النائب الأول (ولي العهد) تلبية لدعوته إيانا لتناول العشاء، دخلنا في القصر الذي كانت زخرفته شبيهة بالزخرفة الموجودة في غرفتنا، فرحب بنا صاحب السمو الملكي الأمير سعود نفسه، وأخذنا إلى حجرة الطعام،

(٥٩) أعشاب بحرية مجففة على شكل أوراق (الكتب والكراسات) سوداء اللون.

وكان بجانبنا يوسف ياسين، وخالد الحكيم، وإبراهيم، والدكتور السوري،[٦٠] وأحد الرجال ممن لهم مكانة في القصر - - نسيت اسمه - كنا جميعاً تسعة. كانت مائدة الطعام على النمط الأوربي، وكانت الأطباق شبيهة بتلك التي نستخدمها حيث نقيم.

جلس الأمير سعود على رأس المائدة، وعن يمينه جلس الوزير الياباني وخالد الحكيم والرجل ذو المكانة الرفيعة في القصر، والدكتور السوري، وعن يساره جلس المهندس وأنا وإبراهيم ويوسف ياسين. كانت هناك مقاعد عديدة خالية تستوعب كثيرين من الضيوف، وتكوّن الطعام من حساء (مرق) لحم الضأن الدسم جدّاً، ومن الدجاج وأرز به قطعة صغيرة من لحم الضأن[٦١] المحمر بالزيت، وفطيرة كبيرة حلوة جدًا جدًا، وفاكهة المانجو المعلبة، وأجمل شيء في هذا كله أنني استطعت أن آكل البرتقال الفلسطيني الطازج، والتفاح الفلسطيني الطازج أيضًا. كان الطعام دسمًا وشهيّاً جدّاً.

وبعد أن فرغنا من تناول الطعام انتقلنا إلى غرفة الضيوف مع النائب الأول (ولي العهد) صاحب السمو الأمير سعود، كانت جدران الغرفة مزخرفة بأشكال جميلة ذات ألوان واضحة جدّاً، وعلى المنضدة وضع مذياع وكرة تحمل خريطة العالم كتلك التي شاهدناها في «الشعبة السياسية».

كان النائب الأول صاحب السمو الأمير سعود يبدو كأبيه، طويل القامة - تصل قامته إلى حوالي ١٨٠ سنتيمترًا - لكنه لم يكن عريضًا كأبيه، وكان لون بشرته داكنًا، يضع على عينيه نظارة، طريقته في الحديث مثل والده تمامًا، إلا أنه كان أسرع قليلا في إخراج عباراته من والده.

---

(٦٠) يعني به الدكتور مدحت شيخ الأرض طبيب الملك عبدالعزيز.

(٦١) ربما قصد وجبة الكبسة الشهيرة.

حدثنا الأمير عن الزمن الذي جاء فيه والده إلى هنا ودخل على هذه القلعة، وحدثنا أيضًا عن الوضع الداخلي في المملكة العربية السعودية، والقضايا التي واجهت الملك. ثم سألنا عن اليابان، وبدأ كأنه مهتم كثيرًا باليابان، ثم تحدث الطبيب السوري والرجل صاحب المكانة في القصر، تحدثا عن الشخصية العربية وعن الشجاعة العربية، وبدا من حديثهما أنهما يكرهان الثقافة الغربية كثيرًا، وخاصة الطبيب السوري الذي زار باريس العام الماضي، ولم يكن سعيدًا أبدًا بزيارته تلك.

قال: «إن مثل هذه الثقافة والحضارة سوف تتحطم سريعًا » فسألته: أيهما أحسن الرياض أم باريس؟ فرد: الرياض بطبيعة الحال، انظر إلى هذا الجو الصحي الجاف.

وكان الرجل الآخر،[٦٢] إذا ماتحدث عن العالم الغربي، كان كما لو كان يشعر بالاشمئزاز والتقزز.

الساعة التاسعة

رجعنا إلى محل إقامتنا، كانت ليلة هادئة، وبالقرب من القلعة كان هناك محل يبيع الطعام لا يزال مفتوحاً.

العرب ممن ليس لديهم هوايات أو اهتمامات معينة ينامون مباشرة بعد صلاة العشاء، لأنه لا توجد لديهم إضاءة ولا كهرباء، إلا أنهم يستيقظون في الصباح المبكر جدّاً. وكان الضوء يشع من القصر الذي نقيم فيه، ومن تلك القلعة فقط.

هذه الليلة هي ليلة الرابع عشر من الشهر العربي.[٦٣] لهذا فالقمر الليلة بدر، كان بدرًا منيرًا ساطعاً وضوءه يشع فوق رؤوسنا، وكان جميلاً جداً جداً، ولذلك قررنا أن نترك السيارة

(٦٢) يريد بالرجل الأخر صاحب المكانة في القصر الذي نسي اسمه.

(٦٣) شهر صفر عام ١٣٥٨هـ/٣ إبريل ١٩٣٩م.

ونستمتع بالمشي في هذا الجو الجميل الذي زاده ضوء القمر - ليلة الرابع عشر - روعة وحسناً.

أعادت إلي هذه الليلة المقمرة ذكرى ليلة شبيهة بها في القاهرة، حينما ذهبت إلى منطقة الأهرام، لاتزال هذه الذكرى وذلك المنظر ماثلين في نفسي وناظري، الآن أعاد لي بدر الرياض ذكرى الليلة المقمرة في القاهرة. فاغرورقت عيناي بالدموع.

بعد أن عدنا إلى غرفتنا، كتبت برقية على الآلة الكاتبة، ثم دلفت إلى سريري، ونمت نومًا عميقًا.



اليوم التاسع

الطريق إلى البحرين

الرابع من إبريل

الساعة السابعة صباحاً

استيقظنا، وكان المطر يهطل بغزارة طوال الليل، ولكنني لم أشعر بشيء، لأنني كنت مستغرقًا في النوم، وأصبح وادي حنيفة من أمامنا مملوءًا بالماء، وكنت أرى الماء لا يزال يجري.

الساعة الحادية عشرة

قدم إلينا يوسف ياسين، كان قد أصاب أسفل مشلحه الوحل من جرَّاء المطر، وحذاؤه مغطى بالطين. تناولنا معًا طعام الغداء، وعاد إلى مكتبه، ثم رجع إلينا في الساعة السادسة مساءً.

كان المهندس ميتسوتشي قد جمع من الحفريات كمية كبيرة من الأحجار والرمال، ثم انكب يدرسها ويفحصها ويدقق فيها. لم يكن متأكدا من وجود مايبحث عنه، وضعف لديه الأمل في وجود ماء في المكان الذي يحفر فيه البئر الآن، لكنه رأى ضرورة الاستمرار في الحفر إلى عمق ١٢٠مترًا، علاوة على ماتم حفره، وعندئذ قد يوجد الماء. ربما ستنتهي محادثتنا ولقاءاتنا غدًا، ويبدو أننا في موسم المطر، وإذا حدث فيضان في وادي حنيفة فمن المتوقع ألا نغادر هذا المكان، إلا بعد شهرين أو ثلاثة أشهر!! [٦٤]

---

(٦٤) انظر أم القرى العدد ٧٤٧ الصادر في ٧ صفر ١٣٥٨هـ/٧ إبريل ١٩٣٩م، ص ٢ عن حالة الجو« هطلت أمطار غزيرة طيلة أيام هذا الأسبوع، ولا يزال الجو مبشراً باستمرار هطول المطر».



ولذا قررنا مغادرة الرياض بعد غد. كنت أنا والمهندس نخطط لعبور صحراء الدهناء لنصل إلى الحسا، وندخل بعدها إلى العراق، ولكن أمامنا عدة مشكلات؛إذ نحتاج إلى سيارة قوية جدّاً على الأقل، وسائق له خبرة، لأن صحراء الدهناء صحراء منخفضة جدّاً يصعب على السيارات اجتيازها، بالإضافة إلى مسألة الطعام والخيام، وكذلك بعض المساعدين.

توجد ثلاث طرق للذهاب إلى العراق، وقد نصحنا يوسف ياسين بأن نذهب عن طريق البحرين، كما ذكر أنه من الأفضل الدخول إلى العراق عن طريق الكويت.

والطريق الثاني هو أن نذهب عبر الصحراء، دون الدخول من الكويت، والثالث طريق مباشر من السعودية إلى العراق.

والطريقان الأول والثاني صعبان لحاجتنا إلى تأشيرة دخول من الوكالة السياسية البريطانية، ولهذا فلم يبق أمامنا إلا الطريق الثالث، وهو الطريق الذي لم يحاول المضي فيه أحد حتى من البدو أنفسهم، فهل ياترى يمكن للسيارة أن تمضي فيه!! لم نجد أي تأكيدات على إمكان تنفيذ هذا الأمر. بالإضافة إلى ماذكره يوسف ياسين عن عدم وجود اتفاق دخول بين العراق والسعودية، فأي شخص - ماعدا السعوديين - يحتاج إلى تصريح من الحكومة العراقية، إذا ما أراد دخول العراق.

كان هدفنا أنا والوزير منذ البداية زيارة منطقة الحسا قبل العودة إلى القاهرة، لهذا قدمنا طلباً للحصول على تأشيرة من الحكومة البريطانية، لكن السفير البريطاني في القاهرة نصحنا بأن نقدم الطلب إلى الوزير البريطاني في جدة، وقال إنه سيعطينا التأشيرة حينما نصل إلى جدة.

وحين قدمنا الطلب في جدة قالوا لنا إنهم سوف يرسلون لنا الرد في الرياض، إلا أنهم غير متأكدين من وصول الرد، وفعلا لم يأت الرد على طلبنا حتى الآن، ولانزال في انتظار رد السفارة البريطانية في جدة، فالبريطانيون لهم سلطة على البحرين والكويت، وبدون تصريح

منهم لايمكن الدخول لهذه المنطقة، وقد ذكرنا ليوسف ياسين هذا الموضوع، وقلنا له: إننا لانزال في انتظار تأشيرة الدخول، فنصحنا يوسف ياسين بضرورة الانتظار، وعدم التحرك بدون وصول الرد المطلوب.

ورأينا من الحكمة الانتظار، فليس أمامنا من حل سواه.

وكنا أيضًا قد طلبنا من شركة الزيت الأمريكية مساعدتنا في الحصول على تصريح، أو إذن بالمرور من البحرين، ولكن الشركة أيضا لم ترد علينا!!

وفاة ملك العراق

الساعة التاسعة والنصف

جاء إلينا عبدالسلام، وكان في عجلة من أمره، فقال: « تعرض غازي ملك العراق لحادث سيارة أمس، أدى إلى وفاته، وأردف: العراقيون يعتقدون أن البريطانيين دبروا هذه الحادثة ، فهجموا على القنصل البريطاني في المَوصل وقتلوه. وقد أذيعت هذه الأخبار من الإذاعة».(٦٥)

كان عبدالسلام مضطربًا اضطرابًا شديدًا. وحين سمعت هذه الأخبار فكرت في العلاقات بين السعودية وإيران ومصر وتركيا وبريطانيا والعراق، ماذا سيحدث في العلاقات بين هذه الدول؟ لكنني اعتقد أن السعودية ربما أنها ارتاحت لما حدث!! وإذا كان البريطانيون أنفسهم قد دبروا هذا الحادث فإن بريطانيا سوف تحاول أيضا الاستيلاء على جميع امتيازات

(٦٥) ورد في جريدة أم القرى العدد ٧٤٧ الجمعة ٧ صفر ١٣٥٨هـ هذا الخبر بالنص التالي:« فجيعة العراق بوفاة جلالة مليكه المرحوم غازي الأول رحمه الله، والمناداة بجلالة نجله الملك فيصل ملكاً للعراق». وفي الصفحة نفسها (٤) ورد خبر الاعتداء على القنصل البريطاني تحت عنوان (حادث مؤسف في الموصل) جاء فيه: «وقع حادث مؤسف في الموصل فعلى أثر إعلان وفاة المرحوم الملك غازي اجتمع الناس في حالة هرج.. واعتدوا على دار القنصلية برجمها بالحجارة، وعلى شخص القنصل، كذلك قتل القنصل متأثراً من الإصابات»، ص ٤٠



البترول، لأن القنصل البريطاني قتل، وهذا سبب جيد بالنسبة لهم، وربما يؤثر هذا الأمر على السعودية أيضًا، لهذا سيطر القلق - فيما يبدو على المسؤولين هنا - وكان هذا الخبر أسوأ خبر تردد في البلدان الإسلامية، غير أن الخبر نفسه لم يتضمن تفصيلات، فكل ماجاء فيه أن ملك العراق قتل في حادث، وقد أسفنا جميعاً على وفاته؛ لأن هناك مشكلة أخرى ظهرت في طريق محاولتنا السفر إلى العراق.

اليوم العاشر

البئر في حديقة النّخيل

الخامس من إبريل

الساعة السادسة صباحاً

استيقظت، ورحت أتجول في الحديقة، كانت الحشائش لاتزال مبللة بالأمطار التي هطلت أمس، وشاهدت الآلة التي ترفع الماء، وبدت كأنها صنعت في الولايات المتحدة الأمريكية، وقوتها خمسة أحصنة، وتسحب الماء من قاع بئر عمقه٣٠ مترًا، وفجأة توقفت الآلة، يبدو أنها أصيبت بعطل مفاجئ، وأنا أشاهدها. فجاء مهندس عربي راح يفحصها، ثم تدلى إلى قاع البئر ممسكاً بحبل .. ياله من عمل خطير!! لكنه - -بعد دقائق معدودة - تمكن من إصلاح العطل، وخرج من البئر، وجسمه كله مبلل بالماء، فقال لي: لقد تعودت على إصلاح أعطال هذه الآلة، وكان - وهو ينزل البئر ويصعد إلى أعلاه- كأولئك الذين يتسلقون الصخور.

ثم ذهبت بعد ذلك إلى الحديقة المقابلة، حيث شاهدت أشجار الخوخ والعنب وأشجار فاكهة أخرى، كانت هناك برك صغيرة متفرقة، نتيجة سقوط الأمطار أمس.

وقبل الغداء جاء يوسف ياسين، وأخبرنا بأن من الصعب مغادرة الرياض غدًا؛ لأن المطر الغزير الذي هطل أمس غطى منطقة نجد كلها، ومن هنا يصعب السفر الآن، وهكذا جاءنا بنتيجة جديدة، على عكس ماكنا نتوقع.

تناولنا طعام الغداء مع المهندسين الأمريكيين، كانا يتحدثان عن عبور صحراء الدهناء حديثًا



مهمّاً بالنسبة لنا، لم يأت يوسف ياسين بعد الظهر، وشعرنا بالقلق، لكن لم يكن هناك مايمكن أن نفعله سوى الانتظار.

عند غروب الشمس سمعنا صوت المؤذن ينطلق من قرية صغيرة في الحضر «حي على الصلاة .. حي على الصلاة ..» كان صدى الصوت يتردد وسط الجو الهادئ، فكان له تأثير كبير.

في العشاء أحضر المهندس ميتسوتشي مرقة دجاج، وعلبة من الطعام الياباني (أودين) تتكون من اللفت المطهي، وعجينة السمك، وبعض الأعشاب البحرية، ونوري (عشب البحر المجفف)، كما أحضر حلوى يابانية تسمى (يوكان) وهي نوع من البقول المطهوة بالسكر، وأحضر الوزير الشاي الياباني الأخضر.

وبعد أن تناولنا طعام العشاء لعبنا الشوغي (الشطرنج الياباني) لعبت - أنا والمهندس - وبعد فترة طويلة أقمنا حفلة على الطريقة اليابانية، حيث تناولنا الطعام الياباني، وشربنا الشاي الياباني، ولعبنا الشوغي الياباني، ورحنا نمرح ونضحك!!

إغلاق الطريق المؤدي إلى الخليج

قدم إلينا عبدالسلام، وأرانا برقية مرسلة من البحرين مكتوبة باللغة الإنجليزية، جاء فيها:

(الوزير الياباني المفوض في الرياض

زيارتكم الآن للبحرين والكويت صعبة، لذا لايمكن إعطاؤكم إذنًا (تصريحاً) بذلك.

الوكالة السياسية البريطانية)

وهكذا واجهتنا مشكلة، فقد كنا نفكر أن نسافر إلى الكويت، إذا لم نحصل على إذن بدخول البحرين، والآن لايمكننا دخول الكويت أيضًا.

آه! لقد سيطر هؤلاء[٦٦] الناس ليس على البحرين وحدها، بل على الكويت أيضًا، ربما اتصلت الوكالة بجدة، ولكنّ البريطانيين في جدة لايرغبون في أن نحصل على إذن، وهم يتعمدون ذلك. ليس أمامنا الآن من طريق سوى الذهاب إلى منطقة الحسا. ثم العودة ثانية. لكن ربما إذا عرفت الحكومة السعودية بأمر البرقية لن تسمح لنا بالذهاب؛ لأن الحكومة في الواقع تنفق علينا أموالاً كثيرة.

كنت غاضبًا ومنفعلاً، لماذا لم يعطونا تصريحًا؟ سوف نمر مرورًا فقط من هذه الأرض، سوف نعبر الطريق فقط، ولن نقيم هناك، فلماذا يقلق البريطانيون هكذا؟، نحن في المملكة نعامل معاملة كبار الزوار، انتابني شعور سيئ، أولئك الناس الذين أرسلوا من بريطانيا إلى بلدان الشرق الأوسط وإلى الجزيرة العربية يريدون أن يسيطروا تدريجيّاً على كل شيء، ومن خبثهم أنه إذا حدثت مشكلة ما في هذه المنطقة فسوف يقولون: إن ماحدث لايد للحكومة فيه، ولايعدو مجرد قضية فردية صدرت عن أفراد، ومن هنا يهربون من المسؤولية.

إن الغضب يسيطر على مشاعري ثانية، إنهم لايريدون أن يصل إلى أي بلد من بلاد هذه المنطقة أي مسؤول من الشؤون الخارجية في بلد آخر، يالهم من أناس أشرار! على كل حال كان علينا اللجوء إلى الحكومة السعودية غدًا.

كانت درجة الحرارة ٢٤ درجة مئوية، وشعرت بتعب شديد جدّاً نتيجة لما حدث!!

(٦٦) أي البريطانيين.



اليوم الحادي عشر

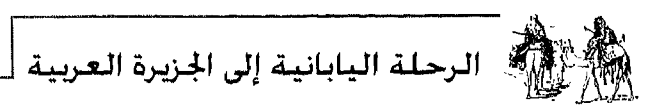
مُلحق قصر البديعة والمسجد الأثري

السادس من إبريل

استيقظنا من النوم، وذهبنا إلى المبنى الملحق بقصر البديعة، ويتكون هذا الملحق من أربع غرف، وشاهدت فيه أرائك مع ألحفة ووسائد وضعت على الطريقة العربية، وكانت زخرفة السقف والنقوش المرسومة عليه مثلها مثل تلك التي في القصر، ومن النافذة كان يمكن أن أشاهد مرتفعات وادي حنيفة، ومن الناحية المقابلة - وعلى حافة المجرى المائي - كانت هناك أشجار النخيل، ثم سور القصر، وكانت المياه في الممر على وشك أن تجف.

في الطرقات المؤدية إلى الغرف في المبنى شاهدت لحافًا، ورأيت في السقف مروحة صغيرة، وحبلاً كان يتدلى من السقف، يسمح لمن يريد تشغيل المروحة بذلك، إذا ماجذب الحبل، وعلى اللحاف شاهدت أثر نوم بعض الناس. وقد سمعت أن الملك يأتي هنا أحيانًا، ويعقد بعض الاجتماعات. ورأيت على سطح هذا الملحق خط هاتفي، وهوائي مذياع، وخزان مياه مربع الشكل، ومن هذا المكان كنت أرى وادي حنيفة، فنزلت واتجهت إلى الوادي، كان الطريق لايزال مبللاً بالأمطار، وشاهدت مبنى مشيدًا من الطين، كان مسجدًا، بدون مئذنة أو قبة، وقد أسس هذا المسجد في وقت الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وقد أقيم بطريقة بدائية وبسيطة جدّاً، وأمامه كان يلعب بعض الصبية: ولدان وبنتان، وحين أردت أن ألتقط لهم صورة أخفوا وجهوهم، كانت الفترة التي يلبسها الولدان سميكة جدّاً وجافة، ربما صنعت من جلد الغنم!![٦٧]

(٦٧) ما ذكره مجرد طرفة، لأنه لو لمسها بيده لعرف أنها منسوجة من قماش سميك.



الساعة الثانية عشرة

جاء يوسف ياسين، وبدأنا اجتماعاتنا مرة أخرى، وأشار إلى أن الملك لايوافق على فكرة رحلتنا إلى الحسا. ويعني هذا بالنسبة لنا أن سفرنا سيكون مستحيلاً، ولم يعد هناك أمل على الإطلاق في سفرنا إلى الحسا، ويجب أن نقلع عن هذه الفكرة، أصبنا بخيبة أمل.

في أثناء تناولنا الغداء مع يوسف ياسين قال: «بأن عندهم الآن عشرين طائرة، لكن لايوجد طيارون يقودونها، وجميعها الآن في مرأب للطائرات، وقد أرسل بعض الطلاب إلى مصر ليتعلموا قيادة الطائرات، ثم ذكر يوسف بأن الملك يستيقظ كل يوم مبكرًا جدّاً في حوالي الساعة الخامسة، وأنه يصلي الصلوات الخمس بانتظام، وعند التاسعة مساءً يستمع إلى الإذاعة مع الحاشية، ويعقد اجتماعاً بعد سماع الأخبار يتم فيه الحديث عن علاقاتنا بالعالم الخارجي، ويعقد هذا الاجتماع كل يوم».

وذكر يوسف ياسين أن الملك يحب الصيد والقنص باستخدام الصقور. وعرفنا منه أن الطرق لاتزال مغلقة في وجه المسافرين، نتيجة لهطول الأمطار الغزيرة.

الساعة الرابعة

ناقشنا آخر الموضوعات التي وضعت في جدول محادثاتنا.

نزهة بالسيارة خارج مدينة الرياض

الساعة الخامسة

قمنا - نحن الثلاثة - بنزهة بالسيارة خارج مدينة الرياض، ورافقنا عبدالسلام ورئيس الحرس. لم يكن هناك ماهو جدير بالذكر، سوى الصحراء، وبسبب هذه الصحراء لم تكن هناك مبانٍ أو آثار دينية أو تاريخية.

ذهبنا إلى جبل «أبومخروق» في وسط الصحراء، وتمكنا من مشاهدة جبل يتكون من الحجر الجيري، يصل ارتفاعه إلى خمسين مترًا، وشكله مثل شكل «النسر» وتبدو في رأس (النسر) فتحة، كأنها عين النسر.

تسلقنا الجبل وأصبحت الفتحة أمامنا أكبر وأوسع، كان قطرها حوالي سبعة أو ثمانية أمتار، شكلتها عوامل التعرية - ربما العواصف الشديدة - وعبر هذه الفتحة تناهى إلى أسماعنا صوت غريب، فأصابنا نوع من الخوف، ومنعنا رئيس الحرس من المضي إلى صعود الجبل، قال: انتظروا حتى أستطلع الأمر، وصعد وحده، ونظر إلى الناحية الأخرى من الفتحة، وجاء بسرعة وقال:

«إنهم أحفاد الملك .. كانوا يلعبون هنا».

قال لنا هؤلاء الأحفاد: تعالوا، انضموا إلينا، كانوا يلعبون عند هذه الفتحة، ولد وبنتان، أعمارهم تتراوح بين الثالثة والسادسة، يرافقهم عشرة خدم في زي عسكري.

حين هبطنا من فوق الجبل شاهدنا سيارة بجوار سيارتنا، وشاهدنا داخلها جهاز «جرامافون» وبجواره حوالي ٥٠ أسطوانة مصنوعة في مصر، كانت في معظمها تحمل أغاني مصرية، ورأيت الولد وعلى رأسه قبعة أشبه بقبعات أهل تركستان، لم تكن على وجهه علامات الصحة، والبنت الصغرى بدا وجهها جميلاً، تحدثت معهم، لكنهم لم يتحدثوا معي.

الموسيقى ممنوعة داخل القصر، لذلك ظننت أنهم ربما جاءوا هنا لسماع الموسيقى في هذا المكان المنعزل.

أخذنا نتجول حول المكان، ونشاهد المنظر المحيط بنا، لم نكن نشاهد سوى الرمال، ولاشيء غير الرمال. إنها الصحراء بطبيعة الحال، وفي الناحية اليمنى - وعلى بعد حوالي ثلاثة أكيال- كان هناك مبنى مربع، قيل إنه مبنى سباق الخيل الخاص بالملك، لم يكن حول ذلك



المبنى أي سور أو سياج، كما لم نر أي جواد هناك.

وحين رجعنا من هذا المكان كانت الشمس على وشك المغيب، ولهذا استعد عبدالسلام ورئيس الحرس والسائق لأداء صلاة المغرب. قام عبدالسلام بالإمامة، كان صوت الصلاة يتردد صداه عذبًا جميلاً في أذني، ورحت أقوم بأداء الصلاة في داخل فؤادي في صمت دون أن أتكلم!!

الساعة العاشرة ليلاً

أرسلنا برقية، وبعد ذلك جاء إلينا يوسف ياسين فجأة. كان من المفروض أن يستقبل وثائق الاجتماعات التي عقدناها من جدة، ولهذا كان عليه أن يذهب غدًا لتلقي هذه الوثائق في منتصف الطريق، ثم يذهب إلى جدة.(٦٨)

وحين نصل إلى جدة سنلتقي بوزير المالية عبدالله السليمان، وهناك ينبغي لنا أن نقوم بعمل شيء مايتعلق بالاتفاق، وافق الوزير الياباني على هذا، لأن من المتوقع أن تهطل الأمطار ثانية، ولانتمكن من السفر، ولكن يوسف ياسين سيسافر وحده، وقررنا أن نتحرك غدًا الساعة الثالثة (حسب التوقيت الغروبي)، أي الساعة التاسعة صباحًا بتوقيت القاهرة، وسوف نلتقي بالملك لتوديعه.

وسوف نتحرك للسفر إلى جدة في تمام الساعة الثامنة (عربي) أي الساعة الثالثة عصرًا (بتوقيت القاهرة).

(٦٨) جاء هذا الخبر في أم القرى عدد ٧٤٨، ٢٤ صفر ١٣٥٨هـ/١٤إبريل ١٩٣٩م، ص٥ ونصه : « وصل العاصمة ليلة الأربعاء الماضي سعادة الشيخ يوسف ياسين قادماً من الرياض، وبعد أن قضى مناسك القدوم من طواف وسعي غادر العاصمة، قاصداً إلى جدة، ينتظر أن يعود منها إلى العاصمة اليوم..».

اليوم الثاني عشر

الـوَدَاع

السابع من إبريل

الساعة السادسة صباحاً

سوف نترك اليوم هذا المكان، ونغادر من هنا عائدين من حيث جئنا. استيقظت، وبدأت أحزم الأمتعة وأجهز الحقائب، وفي التاسعة ذهبنا إلى القصر الذي يقيم فيه الملك، قصر الشمسية مع يوسف ياسين ومستشاره إبراهيم.

التقينا بالملك لقاء الوداع، كانت كلماته لنا بسيطة جدّاً ومعبرة .. قال:

«الناس في بلدنا ليسوا متعصبين، لكن يمكنني أن أقول: إن الناس معتدلين»..

وأعاد الملك هذه الكلمات على أسماعنا أكثر من مرة.

بعد أن التقينا بالملك – وبترتيب من يوسف ياسين – أخذنا تصريحا بالتقاط صورة مع الملك.

إبراهيم سوف يلتقط الصورة لنا مع الملك، بينما سألتقط صورة للوزير الياباني مع الملك، والتقط الوزير صورة للملك وحده، وهي الصورة الموجودة في هذا الكتاب.

ولكن فيما بعد اكتشفنا أن الصورة التي التقطها إبراهيم لم تظهر.

الساعة الحادية عشرة صباحاً

عُدنا إلى مقر إقامتنا، ثم اتجهنا ثانية إلى القصر الذي يقيم فيه النائب الأول (ولي العهد) لنودعه، ونودع كبار رجال الدولة، وفي أثناء ذلك هطلت الأمطار الغزيرة فجأة، وشعرنا بالقلق الشديد، لكن كان يجب علينا على كل حال أن نبدأ رحلة العودة.

كان اليوم هو يوم الجمعة، وعند الظهر تقريبًا وأمام القصر وقفت خمس عشرة سيارة، وكان هناك قادة رجال القبائل (البدو) جاءوا لمقابلة الملك. قام بعضهم بتحيتنا، بينما اكتفى بعضهم الآخر بالنظر إلينا، وشاهدت الحرس الملكي، وطبقا لما ورد في كتاب (جزيرة العرب في القرن العشرين) بقلم حافظ وهبة، فإن مثل هؤلاء الضيوف الذين يأتون للسلام على الملك يبلغ عددهم خمسة آلاف.

لهذا فإن من شاهدناهم الآن كانوا أول الغيث!! وربما نزل بعضهم الآخر في قصر الملك ليلة أمس.

تحركنا لتحية النائب الأول (ولي العهد) والسلام عليه قبل عودتنا، وكان ذلك في غرفة يوسف ياسين، التقينا بالنائب الأول، جاء إلينا يرافقه مستشار الملك وطبيب الملك، عبروا لنا جميعًا عن حزنهم لفراقنا، وأنهم يتمنون أن نبقى فترة أطول، وكانت مشاعرهم صادقة. قال يوسف ياسين: إنه أرسل رسولاً إلى حيث نقيم قبل أن نصل إلى هنا، حاملاً بعض هدايا الملك لنا، إلا أننا غادرنا المكان قبل أن يصل إلينا، ومن هنا كان على يوسف ياسين أن يستدعيه ثانية. بدا عليه أنه مشغول جداً مع أولئك الناس الذين قدموا لمقابلة الملك، ويظهر أن يوسف ياسين مناسب وملائم جداً لمثل هذا العمل. وقد انتظرنا حتى يعود الرسول الذي أرسله إلى مكان إقامتنا. وكنا من خلال النافذة نرى الناس يدخلون ويخرجون، ورأينا أيضًا قافلة قادمة من الحسا مع خمسة عشر جملاً، كانت القافلة تنتظر أيضا أمام بوابة القصر.

من الصعب أن نرى هذا المشهد، مشهد الرياض مرة ثانية، ربما كنا محظوظين تمامًا برؤيتنا

هذا المنظر، وهذا المشهد الرائع المليء بالتنوع. وبسبب المطر كان الطين والرمل قد اختلطا معًا ليكونا وحلاً. غاصت فيه السيارات، وهي تمضي في الطريق الموحل، وشعرت بأن مثل هذا المنظر يوضح صعوبة المستقبل في هذا البلد، وشعرت أيضًا في الوقت نفسه بعظمة ابن سعود، لأنه يقود هذا البلد إلى هذا المستوى الذي وصل إليه، ولكن عليه أيضًا أن يتخطى المشكلات الكبيرة التي تعترضه.

تسلمنا هدايا الملك: أهدى إلى الوزير سيفاً مذهباً، وكسوة تتكون من مشلح وجلباب وغترة وعقال، وأهدى الملك إلى المهندس ميتسوتشي وليّ أيضًا ساعة يمكن أن تضيء أرقامها وعقاربها بالليل، ومدفوعة باسم الملك، وكسوة كالتي أهديت إلى الوزير، وأهدى محمودًا خادمنا كسوة تتكون من مشلح وجلباب وغترة وعقال.

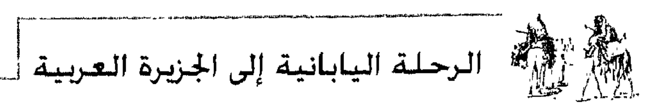
وأخبرنا يوسف ياسين بأنه ليس عندهم نظام يسمح بإعطاء النياشين، لأن ذلك ليس من الإسلام. ولذا أهديت إلينا هذه الهدايا، وفيما يتعلق بالسيف قال: إن الملك تعود أن يستخدمه، لهذا فإن من الشرف الكبير للأجنبي أن ينال سيف الملك، و فيما يتعلق بالكسوة قال: إنها مليئة بالطيب الذي يستخدمه الملك عادة.

ولاأزال احتفظ بهذه الكسوة، ويمكنني أن أشم رائحة الطيب، كلما شعرت بالحاجة إلى ذلك.

المطر في الصحراء

حين رجعنا من القصر(٦٩) ازداد هطول المطر أكثر فأكثر، وشاهدنا في الطريق خيمة بعض البدو، وقد غطوها بجلد الغنم وبحصيرة وحزموها بالحبال. كان المطر غزيرًا جدّاً جدّاً، لذا تبلل كل شيء تمامًا، خرجت من الخيمة امرأة، وبدا كأن المطر انهمر من سقف الخيمة أيضًا، فهذه الخيمة تستخدم عادة للحماية من أشعة الشمس وشدة القيظ ومن العواصف الترابية، والرياح الشديدة، لكنها لاتصلح للوقاية من المطر، فلا فائدة من هذه البيوت في هذا الوقت،

(٦٩) قصر الحكم.



والواقع أنها أقل من بيوت الفقراء في اليابان. انخفضت درجة الحرارة أكثر، وصرنا نشعر بالبرد، والبدو في الخيمة، ربما كانوا يرتعشون داخلها. قسوة الطبيعة هذه جعلت هؤلاء العرب أقوياء، وقادرين على تحمل مصاعب الحياة وشدائدها.

شعرت من أجلهم بالأسى لأنني احتمي في داخل السيارة من المطر، وأشعر بما يشعروا به، لكن الأمر في غاية السوء، ليس هنا فقط، لكن في جميع، أنحاء العالم؛ فقد زرت الهند مرة، فرأيت أحوال الناس أسوأ بكثير مما هي عليه هنا، وزرت مرة منطقة الفسطاط بالقاهرة، ثم ذهبت بعد ذلك إلى شارع قصر النيل، وقارنت بين المنطقتين فلاحظت تناقضًا. وزرت فندق الملك داود في القدس، وشاهدت أيضاً العرب الذين كانوا يقفون عراة مكبلين بالحبال! وفي البصرة شاهدت يختًا رائعًا لامرأة بريطانية، وشاهدت بجانبه بعض الناس يعومون على قطعة مسطحة من الخشب في نهر الفرات، وفي أكرا بالهند كان هناك قصر رائع، وبجواره «كشك»(كابينة) مكسور تفوح منه رائحة عفنة يعيش فيه الناس، وفي شانغهاي شاهدت امرأة فرنسية كانت تمشي مع كلبها تتبختر، وبجانبها إحدى الغواني الصينيات ممن طحنهن الفقر.

فعدم التوازن يمكن أن يرى في أي مكان على أرض المعمورة. لكنني حين شاهدت الناس هنا، هؤلاء العرب البدو، شعرت أنهم سعداء جداً، فهم قبل كل شيء - ورغم كل شيء - يتمتعون بالمساواة في كل شيء!!

أمطار وسيول

وصلنا إلى القصر الذي نقيم فيه لنأخذ أمتعتنا، ونبدأ رحلة العودة، كنا قد أعطينا بعض من ساعدنا في إعداد الأمتعة شيئًا من الهبات، لذا كانت الأمتعة معدة ومحمولة في عربة النقل. توقف المطر، فبدأنا التحرك، لأنه كان ينبغي لنا أن نبدأ الرحلة.

الساعة الثالثة

ولكن أرعدت السماء وأبرقت فجأة، ثم أرعدت وأبرقت وهطل مطر غزير جدّاً، كان صوته يرن في أسماعنا، بينما كانت أشجار النخيل تهتز وتتراقص في شدة، ومن هنا كان على مساعدينا أن ينقلوا أمتعتنا من العربة إلى الداخل، تلك الأمتعة التي تبللت جميعها، واصفر وجه عبدالسلام، وظهر القلق واضحا على وجهه، ماذا ياترى سنفعل؟ وراح يردد: « ربنا وحده يعرف .. ربنا وحده يعرف».

الساعة الخامسة

شعرنا بأن السماء صفت قليلاً، لكن المطر كان لايزال يسقط، وفجأة سمعنا صوتًا عاليًا كالرعد، وتطلعنا من النافذة. كان هناك تل خلف الحديقة، حيث شاهدنا المياه المحملة بالطين تسقط من فوق هذا التل، الذي يصل ارتفاعه إلى ثلاثة أمتار، كان ذلك بصورة مفاجئة، وأشبه بشلال ينهمر من قمة جبل عال.

قدم إلينا بعض مساعدينا من العرب، وقالوا: «انظروا .. إلى المبنى الآخر».

وأمكننا أن نشاهد منظر وادي حنيفة. لقد تحول الوادي إلى نهر عظيم عرضه حوالي ثلاثمائة متر. وكانت هناك دوامات تدور وتتحرك بسرعة كبيرة تجرف معها الأشجار المتساقطة، وأجساد البقر والغنم النافقة التي طفت على سطح الماء.

شعرنا أن جدران القصر ستتحول إلى مايشبه الشبّاك، حيث ستظهر فيها فتحات من شدة سقوط الأمطار. كنت في حيرة!! هل نقرر تأجيل الرحيل؟

قال مساعدونا العرب: حتى لو توقف المطر، فإن الأمر يحتاج إلى يومين أو ثلاثة، حتى تكون الطرق صالحة للسفر.

وقالوا أيضا: إنهم لم يشاهدوا مثل هذا المطر الغزير، منذ فترة طويلة جدّاً.

ولم يكن أمامنا إلا أن نقول جميعاً - بما فينا الوزير الذي حفظ هذه العبارة في القاهرة: «إن شاء الله .. سوف نرحل .. إن شاء الله».

قدمت سيارة من قصر الملك لترى ماذا نفعل، توقفت أمام القصر، حيث اعترضها نهر من الماء حال بينها وبين الدخول.

ولحسن الحظ كان الهاتف يعمل، ولهذا أمكننا أن نجري على الأقل اتصالاً هاتفياً، وحيث لايمكننا أن نفعل شيئًا أخذنا نلعب «الشوغي» (٧٠) في ضوء المصباح.

القصر الصيفي (٧١) تحت المطر

الساعة الثانية

خفت شدة المطر، أراد المهندسان الأمريكيان أن يدعوانا للعشاء، ولبينا دعوتهما، وخرجنا. وفي أيدينا «مصابيح بطارية»، كان الجو في الخارج مظلمًا ظلامًا شديدًا.

ووصلت المياه إلى مستوى الركبة، ونحن نمشي إلى حيث يقيم المهندسان، وحين وصلنا إلى غرفتهما، كانا يصيحان لأن الماء بدأ يتساقط من سقف الحجرة، وبدا كأن السقف كله سيسقط إذا استمرت الأمطار على هذه الحالة.

---

(٧٠) أي الشطرنج الياباني.

(٧١) المكان الذي يقيم فيه المهندسان الأمريكيان.

ومهما يكن من أمر فقد تناولنا الطعام، بدا المهندس الكهل (٤٨سنة) كعادته لايهتم بشيء على الإطلاق، بينما كان المهندس الشاب قلقًا جدّاً، قال إنه كان على وشك الذهاب إلى الحسا، للحصول على بعض المعدات اللازمة للحفر، وقد جهز نفسه تمامًا وأعد كل شيء للرحيل، ولكنه وجد نفسه فجأة يلغي كل شيء. لهذا كان غاضبا جدّاً، لأن المطر غيّر كل شيء. قال لنا: إذا توقف المطر لماذا لانذهب معا إلى الحسا؟

فأخبرناه أننا ألغينا الرحلة لأسباب ما، وقلت له إن هذا يرجع إلى تدخل الإنجليز، فقال المهندس الكهل: «الإنجليز الخبثاء عليهم اللعنة!!».

كان المهندسان الأمريكيان يريدان أن يعرفا السبب الرئيس لإلغاء سفرنا، لكننا بالطبع لم نخبرهم بالأسباب التي أدت إلى ذلك.

ثم بدأنا نتكلم كلامًا فارغًا لا طائل فيه؛ فهما لايهتمان بالقضايا السياسية، ولا بالأمور الثقافية أو غيرها من الأمور التي تستدعي مناقشة أو حديثًا جادًا مفيدًا!!

الساعة العاشرة

رجعنا إلى غرفتنا، ولعبنا الشوغي بعض الوقت. وكان المطر لايزال ينهمر، إلا أن الماء القادم من التلال العالية قل إلى حد ما، ولم يعد بالغزارة السابقة نفسها.





الصورة رقم (٦٢) قصر المصمك، ويظهر في الصورة من اليمين إلى السيار: يوسف ياسين، الوزير المفوض الياباني، مستشار الملك، المهندس الياباني، طبيب الملك وإبراهيم

اليوم الثالث عشر

آثار المطر

الثامن من إبريل

الساعة السادسة صباحاً

استيقظت، فاستحممت، ثم صعدت إلى سطح المبنى فرأيت أن الماء أصبح ضحلاً، وجف ثلثا الماء الموجود في الحديقة والحقول، وغدا الجو جميلاً، وتحسن الطقس، وشعرت بأنه يمكننا أن نبدأ رحلة العودة خلال يومين. ولكن هطلت الأمطار فجأة غزيرة كالشلال ثم توقفت فجأة أيضًا. إن طبيعة هذه المنطقة العربية عجيبة. كان أمام مرآب السيارات بركة يبلغ عمقها نحو ١٥ سم من الماء. على جدران المبنى بقايا الطين الذي جرفه السيل، نصف الجدار تقريبا كان ملطخا بالطين، وهذا يعني أن أمطار الأمس كانت غزيرة وشديدة جدّاً.

كان المهندس الأمريكي الشاب يلتقط صورًا لهذا المنظر، فقال لنا: إنه يرى هذا المنظر لأول مرة منذ أن قدم إلى هنا، منذ أكثر من سبعة أشهر. رحنا ننظر إلى مصدر الماء في أعالي وادي حنيفة. لم تكن هناك مياه، لكن في المنطقة المنخفضة من الوادي كانت المياه لاتزال تجري في شكل دوامات.

شاهدنا حوالي ست نساء يمشين عند الماء، ويحاولن العبور إلى الناحية المقابلة، لكنهن لم يستطعن ذلك، فقد كن يخشين من أن تبتل ملابسهن. ولهذا تمكنا من مشاهدة أرجلهن!! كن من القواعد من النساء، فقد شاهدنا خطوط الزمان على أرجلهن، ومهما يكن من أمر فقد شاهدنا بشرة النساء، ومهما كن هؤلاء النسوة فقد حصلت المشاهدة - بالنسبة لنا - بعد وقت طويل، وبقيت أنظر لهؤلاء النسوة، فلم أتمكن من ترتيب برنامجنا المتوقع في جدة!!





الصورة رقم (٦٣) السيل في وادي حنيفة



الصورة رقم (٦٤) خيام البدو خارج الرياض أثناء هطول المطر

مراقبو السيل

بعد الغداء خرجنا نشاهد المنظر خارج المبنى، ووصلت سيارة إلى الناحية المقابلة، ونزل منها ستة من العرب يرتدون المشالح، واقتربوا من مكان تجمع الماء القريب من المسجد، كانوا جميعًا يجلسون، كما لو كانوا يصيدون السمك، مكثوا نحو ساعة!! يشاهدون الماء.

سألت عبدالسلام: ماذا يفعل هؤلاء؟ فقال: إنهم«مراقبو السيل» أرسلهم الملك، وسوف يفحصون كمية الماء، وكيف وصلت إلى المنطقة، ونسبة الماء ،.. ثم يكتبون تقريراً إلى الملك.

فتحدثت معهم، وطلبت منهم أن يبقوا حتى ألتقط لهم صورة، فوقف كل واحد منهم، وعدل من هندامه، وأعد نفسه لالتقاط الصورة ، ثم قالوا لي:

«من فضلك أرسل لنا الصورة بعد طبعها» فقلت لهم: سأرسلها طبعًا.

تحسن الجو كثيرًا جداً، وصاح أحدهم: «الحمدلله ربنا رزقنا بهذا المطر الوفير» ثم قالوا: لقد تفاء لنا باستقبال الوفد الياباني، وهكذا تحقق هذا التفاؤل.

كنت اعتقد أن حديثهم هذا نوع من التملق، لكن بعد ذلك قال يوسف ياسين الشيء نفسه، كما قال وزير المالية عبدالله السليمان العبارة نفسها، وفي طريق عودتنا قال لنا أمير الدوادمي أيضًا ماذكره هؤلاء لنا، لهذا شعرنا بأنهم فعلاً تفاءلوا، في حين أن الأمر بالنسبة لنا مختلف، فقد كان المطر والجو العاصف يعني «التشاؤم»، لذلك شعرنا بالراحة بعد معرفة حقيقة شعورهم، وبأنهم فعلاً تفاءلوا بقدومنا.

وسمعت أن هناك تقريرًا عن المطر وصل إلى الملك من كل قبيلة في المملكة، وأن الرجل الذي يرسل تقريره أولاً ينال منحة ذهبية من الملك، تصل إلى نحو ٥٠ أوقية.



لكن هؤلاء الناس مراقبي السيل لم يفحصوا الأمر بالآلات أو بالطرق العلمية، بل استخدموا أسلوب المشاهدة بالعين، وسوف يرفعون تقريرهم إلى الملك قائلين: إن في هذا المكان أو في غيره، كذا سنتيمترًا من الماء، وإن الأشجار سقطت وطفت، وإن البيوت المصنوعة من الطين تهدمت، ومثل هذه الأمور.

سيل العرم

أعتقد أنه إذا استمر مطر أمس، وظل يهطل بتلك الغزارة، فإن البيوت الطينية ستسقط، القرى الصغيرة ستصبح حُطامًا مابين لحظة وأخرى. وجعلت أفكر، ووصلت بتفكيري إلى الزمان القديم عصر كندة قبل العصر الإسلامي، وعصر المنطقة العليا لوادي حنيفة، التي كان يطلق عليها منطقة اليمامة. كانت منطقة لها تاريخها.

ربما تلاشت هذه المنطقة، وانتهت حضارتها بسبب السيول والأمطار الشديدة!!!

وفي الطريق رأينا العيينة والقرى التي كانت تمثل مركزًا لمنطقة اليمامة، ثم أضحت اليوم مناطق قاحلة شبه خربة، ومناطق فقيرة. وربما كان أحد أسباب تراجع العمران هنا حركة مسيلمة الذي ادعى النبوة، وكذلك قدوم العساكر من مصر إلى هذه المنطقة، ولكن أهم من هذا وذاك في رأيي هو الطبيعة القاسية وتلك الأمطار الشديدة والسيول المنهمرة.

ففي ليلة واحدة يمكنها أن تهدم القرى، وتحطم كل شيء، ربما حدث في القديم مطر أو سيل شديد، يحدث مرة كل مئات السنين، فيقضي على كل شيء في هذه المنطقة - منطقة اليمامة - يمكنني أن أتخيل هذا الأمر. بينما كان المهندس ميتسوتشي يعرض الحفريات التي جمعها - وبخاصة حفريات القواقع البحرية - الأمر الذي جعلنا نفهم مامر بهذه المنطقة في الأزمنة القديمة جدّاً. ورحت أفكر في القرن الثالث قبل ميلاد المسيح في منطقة اليمن، حين تأسست مملكة (سبأ) التي تحطمت وتلاشت بسبب الفيضان التاريخي المسمى « سيل العرم» وكان ذلك الفيضان أشد عنفا مما شاهدناه في وادي حنيفة، فما شاهدناه أمس كانا مشهدًا

مصغرًا لما حدث لمملكة سبأ الأولى، وهذا يذكرني بآيات من القرآن (الكريم)، وهي:[٧٢]

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ
كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ
﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ
جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ
﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً
وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ۖ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾
فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ
أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ
شَكُورٍ ﴿١٩﴾

فهذه القصة - التي وردت في القرآن - تخبرنا بأنه في القرن الثالث قبل ميلاد المسيح، وفي عهد سبأ الأولى ارتكب الناس خطأ جعل الله يغضب عليهم، فأرسل عليهم سيل العرم، وفي ليلة واحدة تحطم كل شيء حتى السد، وتحطمت عاصمة الدولة، وتفرقت قبيلة سبأ في اتجاهات متفرقة.

نزهة في أماكن تجمع مياه الأمطار

ذهبتُ أتجول حول النهر الذي تكون بفعل المطر، أشجار كثيرة مبعثرة هنا وهناك، وشاهدت أحد جدران القصر انهار وتساقط بعضه، وبقع الماء يصل ارتفاعها على الجدران حوالي مترين، وأصيب بعض أشجار النخيل، لكنها بقيت شامخة صامدة أمام هذا السيل والأمطار الغزيرة. وبفعل حرارة الشمس وأشعتها القوية جفت المياه سريعًا، وصل عرض الماء حوالي ٣٠٠ متر وعمقه أربعة أمتار، إلا أن هذا العرض بدأ يتقلص حتى أصبح مجرد مجرى مائي ضيق.

(٧٢) سورة سبأ الآيات ١٥-١٩.



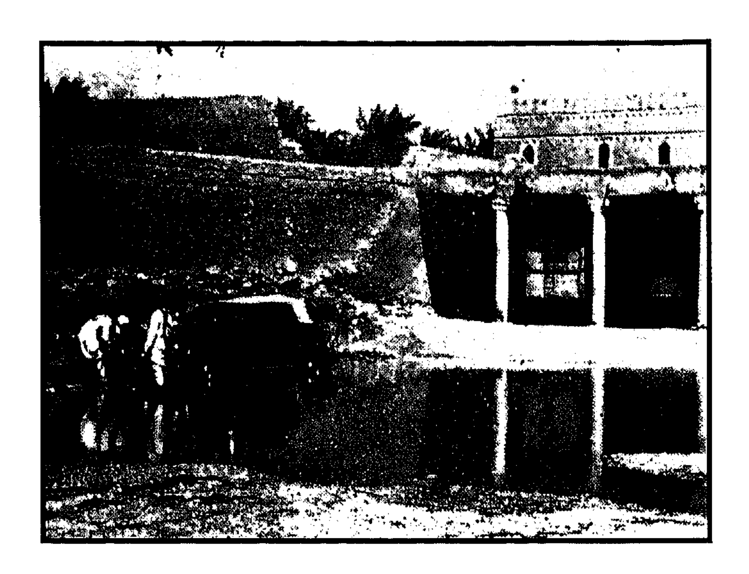
وادي حنيفة ليس له منبع مائي ثابت، وليس له أيضًا مصب، تصب فيه الماء. ولذا فمياه هذا الوادي تمتصها الأرض، وهكذا مياه تظهر في الوادي فجأة إذا جاء المطر، ثم تختفي سريعًا إذا توقف المطر. تختفي المياه داخل الرمال، وبعدها يأتي الجفاف.

اليابانيون طوال حياتهم وطوال أزمنتهم محاطون بالماء، لهذا لايمكننا أن نتخيل بسهولة ماحدث، لايمكن أن نتخيل اختفاء كمية الماء الهائلة الضخمة من أمام أعيننا بهذه السرعة والبساطة، إنها طبيعة عجيبة وغريبة هنا.

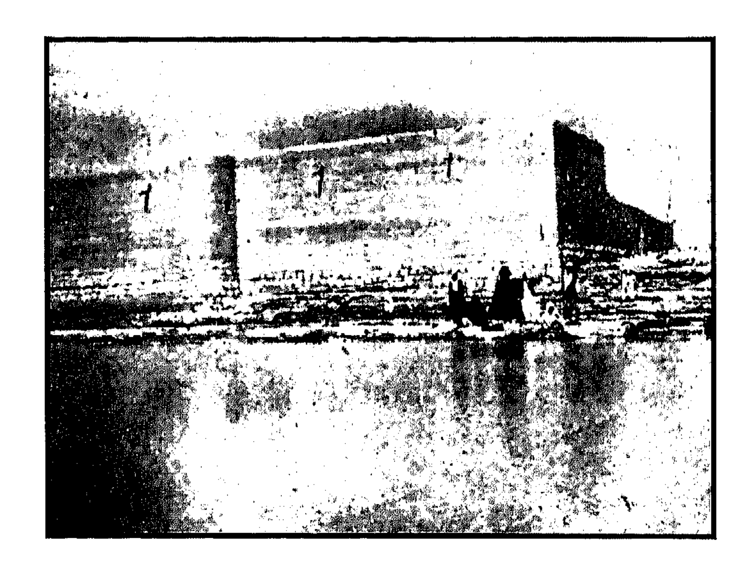
جاء كثير من الناس لمشاهدة منظر ماتبقى من ماء بعد توقف الأمطار، كانوا مختلفين. راقبت شاباً في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمره، جاء مع من أعتقد أنهم خدمه، قدم إلينا مع واحد منهم، وأخبرنا بأن الشاب عبدالله هو ابن عم الملك.

تحدث عبدالله معي، ويبدو أن عينيه تعانيان من شيء، والتقط المهندس صورة لي معه، وأخبرنا بأنه يريد الصورة عاجلاً، فأخبرته بأننا سنرسلها له من القاهرة، ويبدو أنه لم يستطع أن يفهم ماقلته له.

وكان هناك رجل يمكنه التحدث بالإنجليزية بطريقة أفضل من الآخرين، ذكر أنه عمل مترجمًا للمهندسين الأميريكيين في حقول البترول، وحين أعرناه (آلة التصوير الكوداك) راح يأخذ صورًا للمياه، وقال: إنه لايوجد هنا أفلام، واعتاد حين يذهب للحسا أن يأخذ الأفلام من الأمريكيين هناك، ثم اتجهنا بعد ذلك إلى المبنى المجاور، فشاهدنا رجلاً كبير السن، له لحية بيضاء كان يقف أمام مدخل المبنى، وبجواره «صقر» واقف على خشبة، كان هذا الرجل مدرب الصقر، وكان الصقر يخص الملك، قال الرجل: إنه يقوم بتدريب الصقور منذ عشرين سنة.



الصورة رقم (٦٥) مرآب السيارات بالمبنى الملحق بالقصر بعد السيول



الصورة رقم (٦٦) المسجد أمام قصر البديعة

بعد طعام العشاء قدم عبدالسلام، وقال: إن لديه خبرًا يقول: إن إيطاليا احتلت ألبانيا، ولم يعلق على الخبر، أو يبدي رأيه حول الموضوع، غير أن علامات القلق كانت بادية على ملامحه.

وأعتقد أن إيطاليا قد مارست عملاً مشينًا ضد المسلمين، وحين رجعت إلى مصر شاهدت مظاهرات الناس ضد إيطاليا، واعتقد أن الإنجليز في مصر لعبوا دورًا في إثارة مشاعر المصريين أكثر وأكثر ضد إيطاليا. وفي الساعة العاشرة أوينا إلى مخادعنا طلبًا للنوم والراحة.



الصورة رقم (٦٧) الأمير وخدمه في وادي حنيفة، بعد هطول الأمطار



الصورة رقم (٦٨) صورة للكاتب (أقصى اليسار) وابن عم الملك (الثالث) مع خدمه



اليوم الرابع عشر

الرّحيل[٧٣]

التاسع من إبريل

السادسة صباحاً

استيقظت من النوم، كانت هناك كميات ضحلة من الماء في وادي حنيفة لكنها لا تمثل أي مشكلة لسير العربات، وكان يوسف ياسين قد غادر ليلة أمس، وموعد رحيلنا قد أزف، غير أننا لم نكن على يقين من صلاحية الطريق للسفر فأخبرنا مرافقونا من العرب أن يوسف ياسين سافر قبلنا، ولهذا يمكن أن نتبع أثر سيارته، ولن تحدث مشكلات أو معوقات.

الساعة السابعة وعشر دقائق

تجمعنا أمام بوابة القصر، استعدادًا للرحيل، وكان مرافقونا والأشخاص الذين قدموا معنا هم أنفسهم الذين يعودون معنا الآن على السيارات وعربات النقل نفسها التي قدمنا عليها، وقبل أن نغادر بقليل قدم المهندس الأمريكي الكبير السن لوداعنا.

قال:«إن المهندس الشاب سافر أمس، ولهذا فأنا وحيد الآن، إلا أنه خلال أيام سيأتي رئيسنا،

(٧٣) ورد خبر عودة وزير اليابان المفوض في مصر من الرياض إلى جدة في العدد ٧٤٨ من جريدة أم القرى ١٤ إبريل ١٩٣٩م، ص ٤ «غادر الرياض في أوائل هذا الأسبوع سعادة ماسايوكي يوكوياما وزير اليابان المفوض في مصر، الذي سبق وأن توجه إلى الرياض في الأسبوع الماضي للتشرف بمقابلة حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم بعد أن انتهت المهمة التي وفد إلى الرياض من أجلها، وقد وصل سعادته جدة أمس، فنرجوا له السلامة في الحل والترحال»؛ وفي الصفحة رقم (٤) من العدد نفسه ورد خبر وصول الأستاذ يوسف ياسين إلى جدة أيضاً.

ولا أدري ماذا يعنى بكلمة رئيسه، فهو أحيانا يستخدم الكلمة في غير معناها، يقول مرة: إن عبدالله السليمان وزير المالية هو الرئيس هنا، ومرة يقول: إن اليابان هي رئيس بلدان الشرق الأقصى، وأحيانا يقول إن (فيلبي) هو الرئيس الإنجليزي، لهذا لم أكن أدري ماذا يعنى بكلمة الرئيس.

في البداية كان يحدثنا في نشاط وحيوية، ولكن شعرت بعد ذلك أنه يشعر بالأسى والحزن لأن رفيقه تركه، وحيث إننا على وشك الرحيل أيضاً، فإنه سيبقى وحيدًا دون رفيق، شعرت بهذا ثم تصافحنا.

وقلنا له: سوف نلتقي في مكان ما مرة ثانية، إن كنا على قيد الحياة.فظل ممسكًا بيدنا يشد عليها مرة بعد مرة، ثم تركنا ومضى مسرعًا إلى أن دلف إلى المبنى.

وحين تطلعت من نافذة السيارة شاهدته كما لو كان يبكي أمام نافذة غرفته.

مازلت أتذكر إلى اليوم وجهه، لن أراه ثانية، فهذا الرجل على الرغم من أنه عاش في أماكن قاسية مثل الصين، وأحراش الأمازون وفي إيران، وعاش أيضًا وسط هذه الظروف في السعودية، وعلى الرغم من أنه يبدو قوياً ذا عزيمة ثابتة، فإنني شعرت بأنه ذو مشاعر إنسانية دافئة، وأحاسيس مرهفة ويملك عاطفة جياشة، ولم أملك إلا أن أتعاطف معه؛ لم أسأله إن كان لديه زوجة وأولاد أم لا لكن إن كانت لديه أسرة فلابد أنه سيكون زوجًا مخلصًا وأبًا طيّبًا.

وبينما كنت أفكر في هذا كانت السيارة قد غادرت القصر وعبرت وادي حنيفة.

فهارس الكتاب



فهرس الأعلام

فهرس الأماكن







المحتويات



المحتويات









قائمة الصور

الإخراج و التنفيذ الطباعي
مؤسسة مرينا لخدمات الطباعة - الرياض - هاتف: ٤٧٦١٥٥١ - فاكس: ٤٧٣٠٧٦٧

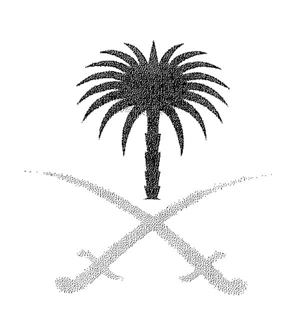






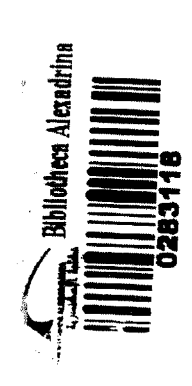

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية



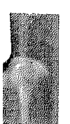


هذا الكتاب

تأتي أهميـــة هذه الرحلـــة
اليابانيـــة التي تترجـــم لأول مرة من
اليابـــانية الى العربـــية من كونها تتناول فترة
تاريخية مهمة، وتســجل وقـــائع زيارة البـــعثة
اليابـــانية الرسمية الى المملكة العربـــية الســـعودية
ومقابلة جلالة الملك عبـــدالعزيز - رحمه الله - في
عام ١٣٥٨ هـ/١٩٣٩ م، والبحث مع جلالته في
جوانب العلاقات السعودية اليابـــانية في المجالات
السياسية والاقتصادية. والأهمية الأخرى لهذه الرحلة
تكمن في أسلوب كاتبها الذي دوّن كافة مراحلها
وقام بوصف ما شاهده من أماكن والشـــخصيات
التي قابـــلها أثناء الرحـــلة من جدة الى الرياض.



رقم الردمك: ٦-٢٣-٦٩٣-٩٩٦٠
ISBN: 9960-693-23-6



9 789960 693236